سلسلة علم الاجتماع المعاصر
الكتاب التاسع والعشرون

توم بوتومور

نقد علم الاجتماع الماركسي

الدكتور محمد علي محمد
أستاذ ورئيس قسم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الدكتور علي عبد الرازق جلبي
أستاذ علم الاجتماع المساعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية

نقـــد علم الاجتمـــاع المـــاركسي

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ السيد محمد بدوى

الاسكندرية

سلسلة علم الاجتماع المعاصر
الكتاب التاسع والعشرون

توم بوتومور

نقد علم الاجتماع الماركسي

ترجمة وتعليق

الدكتور محمد علي محمد
أستاذ ورئيس قسم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الدكتور علي عبد الرازق جلبي
أستاذ علم الاجتماع المساعد
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨٤

دار المعرفة الجامعية

محتويات الكتاب

مقدمة الترجمــة العربية

حــوار مع الماركسية وعلم الاجتماع

بقـــــلم

الدكتور محمد عــلى محمد

كثيرة هى القضايا التى تثار حينما يعقد المرء حوارا على أى مستوى مع الماركسية وعلم الاجتمــاع ، فالبعض قد يزعم انهما يمثلان نوعان مختلفان من الفكر ، وأنه لا مبرر من عقد هذا الحوار ، ويقف آخرون فى الطــرف المقابل لذلك فيزعمون انهما شىء واحــد ، وأن الحــوار يستهدف فى نهاية المطاف التدليل على هذه الدقيقة • على حين نجد أن فريقا ثالثا يذهب مذهبا مختلفا ، ونقول « مختلف » لأنه لا يقوم على مجرد اتخاذ موقف وسط بين نقيضين ، وانما هو ينهض على الدراســة المتعمقة لكل من الاتجــاهين الفكريين : الماركســية وعلم الاجتمــاع ، ويخلص الى ما بينها من التقاء أو افتراق ، ويؤكد ان الحوار بينهما هو نوع من « المواجهة » التى تنطوى بدورها على نفــع متبادل ، طالما أن هناك اتفاقا أو اجماعا حول الهدف العام من هذه التيارات الفكرية الا وهو : **تفسير هذا العالم الاجتماعى من أجــل تغييره الى عالم مشــبع ومحقق لغايات سكانه •**

من هذا المنطلق وجدت أنه من الممكن ادارة الحــوار ، لكى يكون مقدمة لهذا الكتيب الصغير فى حجمه ، والخطير فى مادته وأفكاره ، الذى كتبه الاستاذ توم بوتومور بهدف توضيح طبيعة العلاقة بين الماركسية

من جهة ، وعلم الاجتماع من جهة أخرى • على أن الذى شجعنى عـلى عقد هذا الحوار ، أو اجراء تلك « المواجهـة » أننى حصرت نفسى فى مصدرين رئيسيين يطرحان الابعاد الاساسية لهذا الحوار : المصـدر الاول هو مقـال لمؤلف هذا النص ذاته ، بعنوان : الماركسـية وعلم الاجتمـاع ، نشره بوتومـور فى الكتـاب الذى أشرف على تحـريره بالاشتراك مع الاستاذ روبرت نيسبت[1] ، والآخر هو بحث قيم يكمل الصورة التى نريد أن يقف عليها القارىء ، ذلك هو دراسـة الاستاذ **الفن جولدنر بعنوان : الماركسيتان** ، ويعرض فيه لتطور الماركسية أو يقدم دراسة « ماركسية للماركسية Marxism of **Marxiam** » ويقصد من ذلك اجـراء نوع من التحليل البنائى الداخلى للماركسـية ينهض على قضية مؤداها ، ان تطور الماركسية انما يرتبط بما حـدث لها من « جـدل وصراعات داخلية » بوصفها نظاما فكريا يسـعى الى تفسير العالم الاجتماعى وتغييره •

(١)

ما هى طبيعة العلاقة بين الماركسية وعلم الاجتماع ؟ سؤال ينبغى الاجابة عليه حينما نبدأ الحوار بينهما • يقول بوتومور : « منذ أكثـر من قرن والعلاقات بين الماركسية وعلم الاجتماع وثيقة ، ومسـتمرة

---

(١) انظـر Bottomre, T. Marxism and Sociology; in Bottomomre & Robert Nisbet. *A History of Sociological Analysis*, Heinemann, London, 1979, 11 - 248.

(٢) A. Gouidner, *The Two Marxisms*; *Contradications and Anomalies in the Development of Theory*; *Macmilan, N, X.* 1980.

ومعقدة » ، أما كون هذه العلاقات وثيقة ، فذلك مرجعه الى أن النظرية الماركسية ارادت — شأنها شأن علم الاجتماع — أن تكون علما عـــاما للمجتمـــع •

فمن المعروف أن ماركس قد رفض التسمية التى اطلقها أوجيست كونت وهى « عـــلم الاجتمـــاع Sociologie » وذلك راجع الى أن كونت قد انطلق فى صياغته لهذا العـــلم من الفلسفة الوضـــعية ، التى اعتقد ماركس أنها تضرب بجذورها فى الروح الكاثوليكية،وأنها تكشف عن روح لا هوائية طائفيـــة ، وعن جنـــون تنبؤى ، على الرغم من أن كونت قد أدعى أن الوضعية هى المرحلة التى يكتمل فيها نضـــج المنهج العلمى الطبيعى الذى أراد أن يكون منهجا للعلم الجديد • وهكذا تحدث مـــاركس عن « علم المجتمـــع » الذى يؤلف بين مختـــلف الدراســـات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويكملها ، والهدف الاساسى لهذه الدراسة الشاملة للمجتمع أن تحقق فهما للتغيرات التى حدثت فى المجتمع والراجعة الى تطور الراســـمالية الصناعية والثورات الســـياسية التى شهدها القرن التاسع عشر •

وعلى الرغم من التباين بين علم الاجتماع الوضعى الذى صـــاغه كونت ، وبين علم المجتمع الذى طالب به ماركس ، الا أن المصـــادر التى استقى منها ماركس أفكاره ونظرياته تكاد أن تكون نفس المصادر التى قامت عليها النظريات الاجتماعية ليس فقط عند كونت بل عند سبنسر وغيرهما ، والتى أهمها تاريخ الحضارات ، ونظريات التقدم ، وتحليلات ســـان سيمون للمجتمع الصناعى ، والاقتصادى السياسى الجـــديد • وعموما فنحن حينما نتحـــدث عن مصادر الفكر الماركسى نحدد أساســـا ثلاثة مصادر رئيسية الاول يتمثل فى الفلسفة الالمانية ، أثناء دراسته الاولى

فى الجامعة ، واقامته فى المانيا وبخاصة فلسفة هيجل وفيور باخ ، ثم الافكار الاشتراكية ، التى عاش فى رحـــابها حينما انتقل الى باريس ، وخاصة أفكار سان سيمون وبرودون ، ثم الاقتصـــاد السياسى الذى عكف مـــاركس على دراسته ، وبخاصـــة أفكار ريكاردو وأدم سميث وغيرهما والتقت هذه التيـــارات جميعا عند ماركس فنسجت خيـــوطها نسقا فكريا متكاملا ، ينزع نحو النقد ، والعمل من أجل التغيير •

ومن جهة أخـــرى ، نلاحظ أن تعقد العـــلاقة بين علم الاجتمـــاع والماركسية واستمرارها ، انما يرجع الى التطورات الداخلية لكل منهما والصراع المباشر بين الاراء النظـــرية ، وكذلك الجدل الذى ثار حـــول امكان اعتبار الماركسية نظرية سوسيولوجية متكاملة ، تقف على قـــدم وساق مع النظريات الاخرى ، أم أنها مجرد بناء فكرى متميز وفريد ، أو عالم متكامل من الافكار والمبادىء له وضـــعيته الخاصة ، ويشـــكل بصفة عامة بديلا راد يكاليا لاية نظرية سوسيولوجية لا تنطـــوى على توجيه نحو « العمل من أجل التغيير » فى المجتمع الانسانى •

والمتأمل للنســـق الفكرى الماركسى يستطيع أن يؤكد أن النظـــرية الماركسية تتناول مجموعة من المشـــكلات التى تشكل بدورها محـــورا لاهتمام مختلف النظـــريات السوسيولوجيـــة بغض النظـــر عن تنوع اطاراتها التصورية ومبادئها المنهجية ، فهى تنتقل من تحليل بناء المجتمع وعـــلاقاته الاجتماعية ، الى دراســـة الطبقات الاجتمـــاعية والصراع الطبقى ، ثم تبحث فى ظواهر البناء الفوقى الايديولوجى وتبين أسس الاغتراب ومظاهره وتفحص التغيرات الاجتماعية والثورات ، وتقدم فى النهاية تصورا لما ينبغى أن تكون عليه صورة المستقبل أو المجتمع الجديد وهى فى كل ذلك تهتم بالوحدات الكبرى ، وتتخذ من الاحداث التاريخية

مصدرا لتعميماتها وقضاياها الرئيسية • ومن وجهة النظـر هذه ، فان الفروق بين الماركسية وعلم الاجتماع لا تبدو بأية حال فروقا أكثر من تلك القائمة بين المدارس السوسيولوجية المتنافســة • وهكذا ، يمكن الزعم بأن الماركسية تمثل نموذجا من نماذج التحليل السوسيولوجى ، يقوم على نوع من التأليف المتــاز بين أفكار مستمدة من الفلســفة ، والدراسات التاريخية ، والعلوم الاجتماعية ، وأنها شهدت تطـورات لاحقة ، نتيجة التأويلات والتجديدات المستنيرة التى ظهرت بعد ذلك ، واستجابة الماركسيين للهجوم النقدى ، وللمشكلات الجديدة التى طرحها تغير الظروف التاريخيــة •

واذا أردنا أن نتخذ لنا نقطة بدء فى التعرف على النظرية الماركسية من هذه الزاوية ، فلعلنا نبدأ من أهم مفهوم انطوت عليه هذه النظـرية ، ذلك هــو مفهــوم العمــل الانســانى **Human Lobor** ، وهــو مفهوم سوف يشهد تطورا أيضا من خــلال عدد آخر من المفاهيم التى ارتبطت به فى النسق النظـرى الذى صاغه ماركس • ولقد اســتمد ماركس فكرته الاساسية عن هذا المفهوم من أعمال هيجل ، أذ هو يقول : « ان الانجاز العظيم الذى قدمه هيجل فى الفينو مينولوجيا هو ادراكه لقدرة الانسان على الخلق الذاتى بوصفها عملية ، ••• ومن ثم استطاع أن يعرف طبيعة العمل ••• وأن يتصور الانسان الموضوعى ••• الذى هو نتاج للعمل الانسانى الخاص » • لكن ماركس رغم اعجابه الشديد بفلسفة هيجل ، واعتمــاده على الاداة المنطقيــة لهذه الفلســفة وهى الجدل ، كان ينــكر على هيجل مثاليته ، ومن ثم حــول مفهوم العمــل الروحانى **Spiritual Labor** — فى فلســـفة هيجـــل — الى عمــل يقع فى سياق الانتاج المادى للحياة البشرية ، أى العمل كمصدر لثروة ،

وربما استقى هذا التصـــور للعمل من الاقتصـــاد السياسى • على أن مفهوم « العمل » على هذا النحو ، ليس مفهوما محدودا ــ كما ادعى البعض ــ بحدود الانتاج المادى ، وانما العمل هنا ينطوى على تصـــور أشمل يستوعب النشاط الانســـانى برمته حينما يلتحم فيه الانتـــاج المادى بالانتاج الفكرى • فالانسان لا ينتج فحسب وسائل وجـــوده المادى ، ولكنه يخلق فى الوقت ذاته ، ومن خلال عملية فريدة ، شـــكلا كليـــا للمجتمـــع •

غير أن هذه الفكرة الاخيرة التى منحت مفهوم العمـــل الماركسى طابعا خاصا ، كانت مدعـــاة الى القول بأن تميـــز مفهوم العمل عنـــد ماركس راجع أساسا الى المعنى الاقتصـــادى الذى انطوى عليه هـــذا المفهوم (العلاقة المتبادلة والمتطورة بين الانســـان والطبيعة) ، وهـــو الذى ينظر اليه بوصفه أساس كل صور الحياة الاجتماعية • وعـــلى هذا النحو يمكن القول كما ذهب كارل كورش Karl Korsch أنه يجب النظـــر الى الماركسية باعتبـــارها اقتصادا سياسيا أكثـــر من كونها علم اجتمـــاع ، لكننا مع ذلك نقول انه الى المدى ــ وهو بعيد ــ الذى اعتنى فيه ماركس بتحليل بنية المجتمع ــ بكل عناصرها ومكوناتها ــ ــ فان الماركسية تمثل وجهة نظر سوسيولوجية تمنح البعد الاقتصادى أهمية خاصة ، وتبرز دورة فى تشكيل الواقع الاجتماعى ، منطلقة من الحقيقة التى مؤداها ، أن المجتمع الانسانى داخل فى العالم الطبيعى ، وأنه ينبغى تحليل كافة الظواهر الاجتماعية فى سياق العلاقة المتغـــيرة تاريخيـــا بين المجتمع والطبيعـــة •

على أن ماركس لم يكتف بهذا التصور للعمل ، وانما طبـــق فكرته

العامة على مظاهـــر الشرور والالام التى ارتبطت بهذا المفهوم ، والتى تحدثت عنها النزعـــة الرومانسية الالمانيـــة عند تناولها للاغتراب • اذ نلتقى فكرة الاغتراب بالمفهوم الاقتصـــادى الاجتماعى من خلال تحليل اغتراب العمـــل كما يقف عليه فى كتابات الاقتصـــاديين السياسيين • فاغتراب العمل شأنه شـــأن العمل ذاته ، هو فى رأى مـــاركس عملية Process ، لا تقـــع فى النطـــاق الفـــكرى والروحـــى الخـــالص ، ولكنها تتحقق فى عالم الوجود الفيزيقى للانسان ، والانتاج المادى • ان العمل المغترب هو ذلك الضرب من العمل الذى يفرض على الانســـان بواسطة آخرين ، هو عمل اجبارى ، يتعارض مع النشـــاط الابتـــكارى الحر ، وهو فضلا عن ذلك نوع من العمل يستفيد فيه الاخرون من نتاج عمل العامل ، اولئك هم « سادة نظـــام الانتاج » الذين يمارســـون كل ألوان الاســـــــتغلال •

ويؤكد توم بوتومور أنه من هذين المفهومين الاساسين نســـتطيع أن نحدد عناصر نظريته الشاملة عن المجتمع ، فالعمل كنقطـــة بداية ، انما علينا أن ندركه بوصفه عملية تاريخية متطورة يستطيع الانســـان خلالها ان يغير نفسه ، وأن يغير مجتمعه فى أطار تغييره للطبيعة • وهذا التصور يقودنا طبيعيا الى فكرة مراحل تطور العمل والانتـــاج ، التى تتميز خلال كل مراحل التاريخ ، بوجود اساليب نوعية للانتاج ، وصور مختلفة للمجتمع • يضاف الى ذلك أن هذه العملية التاريخية تنطـــوى على طابع تقدمى ، فالانسانية تتحرك من حالة الاعتماد المطلق على قوى ومصادر طبيعية معينة ، الى حالات أخرى تزداد فيها سيطرتها عـــلى الطبيعة ، وكلما ازدادت هذه السيطرة ، عبر ذلك عن « حقبات تقدمية فى التكوين الاقتصادى للمجتمع » وعن صور أعلى وأكثر رقيـــا للمجتمع •

ومع ذلك فهذا التطور للعمل الاجتماعى لا يظهر فى شكل جهــد جمعى تعاونى لتحسين القوى الانتاجية ، ومن ثم زيادة قبضة الانســـان فى السـيطرة على الطبيعة ، ذلك أن فكرة العمل المغترب تطرح بالفعــل انقسام المجتمع الى جماعتين رئيسيتين تحدد العلاقة بينهما الطــابع العام للحياة الاقتصادية والسياسية • ولقد عبر ماركس عن هذه الفكرة فى رأس المال (المجلد الثالث) بقوله : « انها دائما تلك العلاقة المباشرة بين ســادة الظــروف الانتاجية والمنتجــين المباشرين ، التى تكشف عن الاساس الخفى للبناء الاجتماعى برمته ، ومن ثم تكشف عن الشـــكل السياسى للعلاقة بين السيادة والتبعية ، وبايجاز الشكل الخاص للدولة • وصورة هذه العلاقة بين السادة والمنتجين ترتبط عادة بمرحلة محددة فى تطور أساليب العمل ، ومن ثم الانتاجية الاجتماعية للعمل » •

ويخلص بوتومور من ذلك الى أننا نستطيع فى الكتابات المبــكرة لماركس أن نقف على الخطوط العريضة لنظريته السوسيولوجية ، وهى التى تتضمن مفاهيمه الرئيسية عن العمل ، والملكية الخاصة ، وأسلوب الانتاج ، وأشــكال المجتمع ، ومراحل النمو ، والطبقــات الاجتماعية ، والصراع الطبقى ؛ وهى مفاهيم متضــمنة فى عرضه ، الذى قد يبــدو متفرقا ، وان كان يكشف عن التطور الفعلى لفكر ماركس من خلال جدله مع الفلسفة الهيجلية والاقتصاد السياسى فى محاولة لاعــادة صياغة الافكار الفلسفية فى شكل تصورات هى عناصر نظرية للمجتمع وصــفها ماركس نفسه بانها « ثمرة تحليل واقعى خالص » • وجدير بالذكر ان مفهوم ماركس عن الطبقــة الاجتماعية ــ مثلا ــ قد تطــور فى كتابات تتعلق الى حد كبير بدراســات البروليتاريا الحــديثة ، التى طــورها المفكرون الفرنسيون الاشتراكيون • وبحلول عام ١٨٤٥ ، كان ماركس

قد بلغ تطـورا فى أفكاره تمكن معـه من صياغة المبـادىء الرئيسية لنظريته : « ان هذا التصور للتـاريخ ، اذن ، انما يرتكز على عرض العملية الفعلية للانتاج ، التى تبدأ من الانتاج البسيط للحياة ، وعلى فهم أشكال التفاعل المرتبطة بهذا الاسلوب للانتاج والناشئة عنه ، مثال ذلك المجتمع المدنى فى مراحله المختلفة ، بوصفه اسـاسا للتاريخ ككل ، وأيضا فى تحوله للدولة ••• أنه لا يفسر الممارسة بالرجوع الى الفكرة ، وأنما يفسر تكوين الافكار من الممارسـة الواقعية ، ومن ثم يصل الى النتيجة التى مؤداها ، أن كل صور الوعى ومنتجاته ، يمكن تحليلها لا من خلال النقد الفكرى ، ولكن بالممارسة الفعلية للعلاقات الاجتماعية : تلك الممارسة التى تنشـأ عنها ضروب من الافكار المثالية ، واذن فليس النقد هو القوة الدافعة للتاريخ،وانما الثورة ••• تلك التى تكشف ••• خلال كل مرحلة تاريخية ••• عن أن هناك نتاجا ماديا ، أى مجموعة من القوى المادية ، أو علاقة تاريخية بين الافـراد والطبيعة ، وبينهم وبين بعضهم البعض ، وهذه العلاقة تنتقل من جيل الى آخـر ، ••• بحيث تخضع لتعديل من الجيل الجديد ، وتحدد له ظروف حيـاته ، وتمنحه شكلا خاصا للتطور ، أو طابعا متميزا • أنه ليبدو أن الظـروف تصنع الرجال ، تماما كما يصنع الجال ظروفهم » (الايديولوجية الالمانيـة ١٨٤٥ ــ ١٨٤٦)•لقد ارتبط هذا الاطار النظرى باسم ماركس ، وهو يوصف بأنه ينطـوى على الخطوط الموجهـة لكافة دراساته اللاحقـة الا أن ثمة فقرة هامة تلخص أهم متضمنات نظرية ماركس نوردها على النحـو التالى : « يدخل الناس خلال انتـاج العلاقات الاجتماعية فى علاقات محددة ضرورية ومستقلة عن ارادتهم ، وترتبط هذه العلاقات الانتاجية بمرحلة محددة من تطـور قواهم المادية للانتـاج • ويكون مجموع علاقات الانتاج البناء الاقتصادى للمجتمع ــ الاساس الحقيقى

الذى ينهض عليه البنــاء الفوقى القانونى والسياسى ، والذى ترتبط به صور معينة للوعى الاجتماعى • ويحدد اسلوب انتاج الحيــاة المادية الطابع العام لعمليات الحياة الاجتماعية ، والسياسية ، والروحية ••• وخلال مرحلة معينة من التطور ، تدخل قوى الانتاج المادى فى المجتمع فى صراع مع علاقات الانتاج القائمة ، التى كانت تمثل التعبير القانونى لها ـــ أو مع علاقات الملكية التى كانت تتسق معها فيما سبق ••• ومن ثم تظهر حقبة الثورة الاجتماعية » (مقدمة اسهام فى نقد الاقتصـــاد السياسى ١٨٥٩) •

واقد تغير اتجاه ماركس بعد منتصف اربعينيات القرن الثامن عشر تغيرا ملحوظا ، اذ ذهب لويس التوسير L. Althusser الى أنه بحلول عام ١٨٤٥ ظهرت فترة « استرخاء معرفى » فصلت بين الكتابات التى عبرت عن ماركس الشـــاب والتى عكست اهتماماته الانســـانية والايديولوجية والتاريخية المتأثرة بأعمال هيجل وفيورباخ ، وبين أعمال ماركس فى مرحلة النضج التى تمثل محاولة منظمة لصياغة علم دقيـــق للمجتمع • ويبدو من أعمال ماركس الاساسية أنه وضع برنامجا ضخما يتسق مع وجهة النظر السابقة ، اذ هو يقرر من جديد تصوره للتطـــور التاريخى لاساليب الانتاج ، فبينما يلاحظ « أن كل الحقبات التاريخية للانتاج لها خصائص مشتركة » ، نجـــده يحلل العلاقة بين الانتـــاج ، والتوزيع ، والتبادل ، والاستهلاك ، ويفحص نهج الاقتصاد السياسى ويحدد عناصر منهجه الخاص • وأخيرا ، يقدم فى شكل مذكرات ، بعض المســـائل الهامة التى يتعـــين مواجهتها فى أية محاولة للتدليل بطـــريقة

تفصيلية على الارتباط بين اساليب الانتاج ، واشكال المجتمع والدولة والظواهر الثقافية ، أو تفسير التطور التاريخى للمجتمعات فى علاقتـه بمفهوم التقدم • وفضلا عن ذلك فأنه يكتب فصــلا مطولا عن التكوين الاقتصادى ما قبل الرأسمالى ، الذى يعد أكثر محاولات ماركس شمولا ومنهجية لمناقشة مشكلة التطور التاريخى •

ومن الواضـــح أن ماركس لم يكن قـــادرا على استكمال مشروعه الطموح ، وأن أعماله الاساسية منذ أواخر عام ١٨٥٠ حتى وفاته ، قد ركزت اساسا على التحليل الاقتصادى ، الذى ظل هو ذاته غير مكتمـــل، ومحصورا فى دراسة الرأسمالية بوصفها أسلوبا متميزا للانتاج•ومعذلك، فهو لم يتجاهل أبدا دراساته عن الاشكال التاريخية المتنوعة للمجتمع ، وخلال سنواته الاخيرة (ما بين ١٨٨٠ — ١٨٨٢) كتب تعليقات شاملة حول أعمال الباحثين الذين تناولوا دراسة التاريخ الاجتماعى والثقافى للبشرية ، ومن بينهم مورجـــان L. H. Morgan ، وفيير J. B. Phear ومين H. S. Maine ، وجـــون لوبوك J. Lubbock .

وهكـــــذا فقـــــد اتسمت دراســـــات ماركـــــــس فى مرحلة نضوجه بسمتين رئيسيتين : **الاولى هى تطوير وتنقيح تحليـــله** النظرى لاساليب الانتاج من خلال الدراسة المركزة لاسلوب الانتـــاج الرأسمالى الحديث ، والفحص النقدى للنظريات التى صـــاغها اسلافه **ومعاصريه فى الاقتصاد السياسى / والسمة الاخـــرى هى الجهد الذى** بذله لوضع اسلوب الانتاج الرأســـمالى والمجتمع الرأسمالى فى اطـــار تاريخى للتنمية لاجتماعية ، تلك المحاولة التى لخصها فى أعماله المبكرة ؛ ولكنه حاول تطويرها فى كتاباته اللاحقة •

ولقد ناقش مارتن نيقــولاس M. Nicolaus في مقــال له التحليل الاقتصادي الذي طوره ماركس ، وذلك تحت عنوان « ماركس المجهول » • فكشف عن تطــور فكر ماركس حول ثلاثة قضـــايا رئيسية الاولى أنه طور تحليل النقــود والتبادل الذي بدأه في كل المســودات الاقتصادية والفلسفية ، وصاغ تصورا للنقود بوصفها تمثل « رابطــة اجتماعية Social Bond » ، تلك التي تعبر عن نتاج تاريخي للعلاقات الاجتماعية في المجتمــع الرأسمالي ، ولكنه أخضع معالجــة علاقات السوق لتحليله للانتاج الرأسمالي وعملية تراكم رأس المال ، أو التوسع الذاتي لرأس المال • وثانيــا في تحليله لرأس المـــال استخدم المفهوم الجــديد عن « قوة العمــل Labour Power (بدلا من مصطلح « العمل » في كتاباته المبكرة) لوصف السلعة التي يبيعها العامل في مقابل الاجر ، وأوضح النوعية المتميزة لهذه الســلعة ، بمعنى أنها قادرة على خلق قيم غير قائمة بالفعل ، أو أنها قادرة على خلق قيــم أكثر مما تحتــاجه ــ أي أنها تخلق فائضا للقيمة ، هو مصــدر الربح الرأسمالي • وأخيرا فاقش ماركس بتفصيل أكثر الظروف التي سوف تؤدي الى انهيار الرأسمالية • وهنا يبدو أنه أثار نوعين من العوامل ، الاولى سلبية ، والاخرى ايجابية • فقد ذهب ماركس في المحل الاول ، الى أن الرأسمالية تتضمن معوقات محددة للانتاج ــ بحيث تتعارض مع اتجاه الرأسمالية العام نحو تحطيم كل معوقات الانتاج ــ تلك هــي فائض الانتاج والذي يمثل التناقض الاساسي للرأسمالية المتطورة • ولقد حاول ماركس تشخيص هذا الانتاج الفائض بصورة مختلفة،ولكن وجهة نظره يمكن تلخيصها في العبارة التالية : « أن هذه العملية تتضمن

تحديد أو تعقيد قيمة استخدام الانتاج بقيمة التبادل » ، ومعنى ذلك ، أن تحديد الانتاج يظهر لأن المنتجات (السلع) يتعذر تبادلها ، ومن ثم فان ما تتضمنه من فائض للقيمة لا يتحقق • أو كما عبر ماركس عن ذلك فى كتابه رأس المال الجلد الثالث ، « ان السبب النهائى لكل الازمات الحقيقية هو دائما فقر الجماهير وضعف مستوى استهلاكها ، فى مقابل اتجاه الانتاج الرأسمالى الذى يطور القوى المنتجة بطريقة تجعل من القوة المطلقة للاستهلاك فى المجتمع هى القيد الوحيد لهذه القوى » • وهذا التحليل يقدم لنا المحتوى الاساسى للقضية العامة عند ماركس ، وهى التحول الى شكل جديد للمجتمع يبدأ حينما يتطور الصراع فى المجتمع القائم بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج (التى تتشكل ، فى حالة المجتمع الرأسمالى ، بواسطة النقود والتبادل ، وبايجاز ، عن طريقة السوق) • لكن العامل الايجابى الثانى فى انهيار الرأسمالية هو أنها تخلق ، فى حالة نموها ، اموالا اقتصادية لا تتحقق فيها عملية العمل الاجتماعى بصورة جمعية الا بقدر محدود جدا • ولقد عبر ماركس فى بعض الفقرات الهامة عن هذه الحالة بقوله : « حينما تنمو الصناعات الكبرى يعتمد خلق الثروة الحقيقية على وقت العمل وكمية العمل أكثر من اعتماده على قوة الادوات التى تتحرك خلال وقت العمل ، والتى تكون فعاليتها بالمثل غير مرتبطة بوقت العمل مباشرة فى انتاجها ، ولكنها تستند الى الحالة العامة للعلم ولتقدم التكنولوجيا ، أو تطبيق العلم على الانتاج ••• وعندما يحدث هذا التحول ، فان ما سيبقى فى عملية الانتاج والثروة لن يكون هو العمل ، وانما ملاءمة قواه الانتاجية العامة ، وفهمه وسيطرته على الطبيعة ، وبايجاز تطور الفرد الاجتماعى ••• ان تطور رأس المال الثابت يكشف عن المدى الذى تصبح فيه المعرفة الاجتماعية العامة قوة انتاجية مباشرة ، ومن ثم مدى

خضــوع عمليات الحيــاة الاجتماعية لسيطرة العقل العام وتشــكلها بواسطته » • ان انهيار الرأسمالية والتحول الى شكل جديد للمجتمع قــد اعتبرها ماركس عملية معقدة تنطــوى على أزمــات اقتصادية ، وصراعات سياسية ، وفضــلا عن ذلك فان النمو داخــل الرأسمالية ، وتطور نسق اقتصادى بديل ، ثم اضعاف كل قوى العلم والطبيعــة : والتنظيم اجتماعى » تلعب دورا هاما •

واذن ، كيف يتلاءم تحليل ماركس للرأســمالية ، وبخاصــة نمط الانتاج الرأسمالى ، الذى يمثــل جزءا كبيرا من أعماله ، مع نظــريته العامة عن المجتمع التى لخصها فى شبابه ؟ وكما سبق أن أوضحنا ، لم تكن هناك أية مرحلة لم يشتغل فيها ماركس بالتطور التاريخى للمجتمع باعتباره يمثل عملية تتابع لاساليب متميزة للانتاج والتكوين الاجتماعى ؛ وقد عاد الى دراسة هذه القضايا التاريخية فى مناقشته العامة للتكوينات الاقتصــادية ما قبل الرأســمالية ، وفى كتاباته عن أسلوب الانتــاج الاسيوى ، وملاحظــاته عن المجتمعات القبلية والريفية ، التى استندت الى دراساته عن أعمال مورجــان ومين وغيرهما من العلماء الاجتماعيين الذين تناولوا دراســة التاريخ المبكر للنظم الاجتماعية • مع ملاحظــة هامة : وهى أن ماركس يؤكد أن طبيعة العلاقات القائمة فى المجتمعات المبكرة هى طبيعة قرابية أو دينية أو سياسية ، وهى لا تمثل تناقضا ، على حين أن طبيعة المجتمع الرأسمالى تفترض أن العلاقات الطبقية هى التعبير الاساسى عن التناقض بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج •

واذا كانت نظــريات ماركس وأفكاره خــلال حياته لم تنل اهتماما كبيرا ، فان هذه النظــريات قد مارست بعد موته مبــاشرة تأثيرا فكريا وسياسيا كبيرا ، واتخــذ هذا التأثير اتجاهين اســاسيين الاول هــو

تأثيرها فى حركة العمل ، والآخـر تأثيرها فى العلوم الاجتماعية • ومن خـلال ذلك خضعت الماركسية لتعديلات وتطوير ، وبخاصـة التحليل الماركسى للرأسمالية ــ ونذكر على سبيل المثال أعمال روزا لوكسمبرج ــ الذى عولج فى ضوء التغيرات التى حدثت منذ موت ماركس ، وتفسير النمو المستمر للرأسمالية من خلال ظاهرة الامبريالية • وخلال العقـد الاول من القرن العشرين ظهرت مدارس فكرية متنوعة داخل الحـركة الاشتراكية نتيجة للمناقشات التى دارت حول تفسير نظرية ماركس ، ومحاولات اعادة صياغتها فى ضوء الانتقادات الموجهة اليها ، وتطـور الدراسات الامبيريقية فى علم الاجتماع والتاريخ الاجتماعى • وهكذا ، بحلول العقد الاول من القرن الحالى تأسست الماركسية بوصفها نظرية اجتمـاعية ، وعمقت جـذورها فى التجـربة العملية لحركة الحـزب الاشتراكى ، والمجال الاكاديمى حيث بدأت تتضح معالم حركة البحث الاجتمـاعى ذى التوجيـه الماركسى • والمتتبع لاتجـاهات النظـرية السوسيولوجية المعاصرة يستطيع أن يتعرف على أبعاد التأثير الماركسى فى هذه النظـريات فقد تأثرت حـركة البحث الاجتمـاعى فى معهـد فرانكفورت بها ، هذا فضلا عن تأثيرها فى علم الاجتماع الالمانى منـذ بدء تكوينه ، فمن المعروف أن أفضل قراءة لكتابات ماكس فيبر هى أن نطالع هذه الاعمال بوصفها حوارا وتعليقا حادا على المقولات الماركسية• وبالمثل ، فان الكتابات المعاصرة فى ميـدان التنمية والتحديث لا يمكن فهمها بعيدا عن هذه المقولات ، ونخص بالذكر أعمـال فرانك وبـول باران وغيرهما •

(٢)

وبعد أن قدم لنا بوتومور عرضـا واضحا ومحددا للماركسـية ــ

خلال مراحل تطــورها المختلفة ــ بوصفها نظــرية اجتماعية تتضــمن مفاهيم ومقولات سوسيولوجية ، وتستثير حــركة البحث الاجتماعى .
نستطيع الان أن تقدم التحليل الذى ضمنه الفن جولدنر مؤلفه بعنوان *الماركسيتان* ، حيث يبدو هذا التحليل مؤسسا على دراسات بوتومور ،
ومعنى ذلك بعبارة أخــرى أن كتــابات بوتومور عن الماركســية وعلم الاجتماع تشكل مقدمة منطقية ينبغى البدء بها قبل قراءة كتــاب الفن جولدنر • اذ يركز جولدنر على تطور النظرية الماركسية من خلال دراسة التناقضات الداخلية فيها من جهة ، والانتقادات والعداءات الخارجيــة لها من جهة أخرى • وأهم ما يبرزه من تناقضات هو التناقض بين ما يطــلق عليه « الماركسية العلمية » فى سعيها نحــو أكتشاف القوانين الحتمية ، و « الماركسية النقدية » حين تنهض على فلسفة للممارسة من ناحية ، وعلى فن نقدى من ناحية أخرى •

وقد نظر جولدنر الى تطور الماركسية خلال ثلاث مراحل رئيسية ، أما المرحلة الاولى فهى مرحلة البداية والتــأسيس ، وفيها اتجه الرواد المؤسسون نحو تحديد طبيعة النظرية وتمييزها عن الاتجاهات الاخرى ، وأما المرحــلة الثانية فهى المرحلة التى شــهدت تطورات جــديدة ، وصراعات بين الجــديد والقديم ، ثم المرحلة الثالثة والتى لوحظ فيهــا ان النظــرية اتخذت شــكل النمــوذج Paradigm ،رة وينهبدءك دخلت النظرية فى نقاش وحوار مع كثير من الافكار التى ظهرت خــلال المرحلة الثانية ، وهى الافكار المعارضة لتى تركزت معظمها حــول دور الدولة ، وطابع نمط الانتاج الآسيوى،واعيدت من جديد مسألة التعارض بين فكرة الدولة وبين التحــرر الانسانى ، كما شهدت أيضا مراجعــة لافكار انجلز بالذات ، والفروق بينه وبين ماركس •

ويؤكد جولدنر أن دراسة الماركسية تمثل مطلبا حاسما فى هذا العصر الذى نعيشه ، اذ يمكن القول ان أكثر من ثلث سكان العالم يعيشون فى دول وتحت سيطرة نظم تصف نفسها بأنها نظم ماركسية ، هذا فضلا عن ان فهم الثورات التى يشهدها العالم المعاصر أمر متعذر بدون دراسة الماركسية ، ولهذا فان الماركسية تمثل أحد المداخل الرئيسية لفهم عالمنا المعاصر ، وهى ولا شك تتفاعل مع البيئة التى تعيش فيها باعتبارها جزءا من هذه البيئة ، ولكنه جزء هام وحيوى ، وبدون فهمه يتعذر فهم الاحداث الكبرى لهذا العصر •

فى ضوء ذلك يحدد جولدنر معالم النقد الذى يطرحه للماركسية ، فهو نقد يبحث عن العقلانية فى الفكر الماركسى ، وينظر الى هذه النظرية بوصفها نتاجا انسانيا ، خلقته ظروف تاريخية معينة ، أنه نقد يبحث عن حدود هذه النظرية بدرجة لا تقل عن بحثه فى انجازاتها • ونقد النظرية هو عمل ايجابى بكل معانى هذه الكلمة ، لأنه يعنى قراءة النص من خلال حوار ينعقد بين هذا النص وبين تيارات فكرية أخرى عديدة ، فمن المسلم به ان المعانى التى ينطوى عليها أى نص لا يمكن أن تقتصر فحسب على ما يجرى فى عقل كاتب هذا النص ، وهذا هو ما تعنيه عملية تأويل النصوص واعادة تفسيرها فالنظرية تحمل رسالة ، لا نشك مطلقا فى أن مؤلف هذه النظرية يعلم تماما جوانب الرسالة ، ولكن دائما ما تكون هناك جوانب أخرى يمكن اكتشافها بواسطة عملية التأويل التى يقوم بها المفسرون والنقاد • وهذا اللون من النقد لا يعزل النظرية عن السياق الذى ظهرت فيه ، ولا ينظر اليها بوصفها حدثا فريدا ليست له أية مقدمات ، أننا هنا سوف نهتم ببحث الماركسية من خلال وضعها جنبا الى جنب مع الانجازات الاخرى والظروف والحاجات الانسانية

التى ارتبطت بهـا خـلال الحقـة التاريخيـة التى شـهدت ظهـورها • وربما لا يجد هـذا النوع مـن التحليل قبـولا من بعض الماركسيين من أمثال لويس التوسـير L. Althussa الذى ذهب الى حد القول بأن « الاكتشاف الذى قدمه ماركس يعد أعظم حدث فى تاريخ المعرفة الانسانية ، منذ ظهور الرياضيات فى اليـونان » • ولكن الزعم أن النظرية قد نشأت نتيجة لضغط الحاجات الانسـانية ، يدعونا الى الاجابة عن التساؤل الهام الذى مؤداه ، حاجات من ؟ حاجـات أية جماعة انسـانية ؟ وما هى مواصفات هذه الجماعة ؟ ان الاجـابة التى يقدمها لنا الفكر الماركسى على ذلك هى « ان الماركسية تعبر عن وعـى الطبقـة العاملة » ، ومن ثم فان « الوعى يتحـدد من خلال الوجـود الاجتماعى » ، وهذا ولا شـك يدعونا الى فحص الاسـاس الطبقى للماركسية ، وهو فحص يدخلنا الى صميم البناء الاجتماعى الذى ساد خلال الفترة التاريخيـة التى ظهرت فيها الماركسية وفى الوقت ذاته ، علينا أن نفكر فى اولئك الاشخاص الذين صاغوا هذه النظرية (ماركس وانجلز) ، فهم بالطبع لا يرتبطون بالسياق الاجتماعى ارتباطا سـلبيا أو متناغما تماما مع هذا السياق ، وانما هم يقومون بهذا العمل النظرى من خلال صراع مع هذا السياق وثقافته وتقاليده السـائدة • وهذا ـا حدث بالفعل حينما حددت الماركسية معالم الفروق بينها وبين التيارات الفـكرية التى تأثرت بها ، مثل فلسـفة هيجل المثالية ، والاقتصـاد السـياسى الانجليـزى ، وبعض جـوانب الـذوق العـام كالـدين والايديولوجيـات السياسية وغيرها • وهكذا ، فان فهم الماركسـية لا يتطلب فحسب فهم الاصـول الفكرية التى نبعت عنها ، وانما يحتـاج أيضا الى فهم الاتجاهات المعارضة لها ، والتى حاولت ان تتميز عنها •

فكل عمل نظرى جديد لا يمثل اضافة الى بناء قائم فقط ، وانما ينطوى كذلك على حذف لبعض عناصر هذا البنـــاء •

واذا كانت فكرة النقد تتضمن تركيزا على سياق النص موضع النقد، وذلك من حيث أصوله التاريخية والفنية ، فانها أيضا تنظر الى النصوص ذاتها على أنها تجسد تناقضاتها الداخلية ، وادراك هذه التناقضات يعد مدخـــلا هاما لفهم الوضع الراهن للماركســـية وتطلعاتها المستقبلية • والحديث عن الماركسية بهذا النحو ، انما يعنى أنها أكثر من مجرد نسق نظرى ، ينطوى على مجموعة من القضايا ، انها عالم منظم من الافكار الثورية • ومن ثم فان النقد يرتكز على محورين ، الاول بنائى يهـــدف الى الكشف عن العناصر المتعارضة ، والاخر دينـــامى يبحث فى نتائج هذا التعـــارض •

وهكذا ، حدد الفن جولدنر أبعاد تحليله النقدى للماركســـيتان ، الماركسية العلمية فى سعيها نحو اقامة نظرية عن المجتمع ، والماركســـية النقدية الفلســـفية ، واستطاع من خـــلال هذه التفرقة أن يكشف عن الظروف التاريخية والمجتمعية التى صاحبت نشأة الاتجاهين ، ومبـــلغ اسهامها فى فهم العالم الاجتماعى • ومع ذلك ، فالخط الفاصل بين هذين الاتجاهين ليس قاطعا تماما ، بمعنى أن هناك تبادلا للافكار والمواقف بين الماركسيين الذين ينتمـــون الى كل من هذين الاتجاهـــين • الا ان الحقيقة التى اراد جولدنر أن يكشف عنها هى ان وجود هذين التيارين داخل الماركسية هو أحد مصادر التوتر الداخلى والجدل ، الذى يعـــد عـــاملا رئيسيا من عوامل تطور النظـــرية ككل ، خاصة اذا أخـــذنا فى الاعتبار العداءات الخـــارجى والنقد الذى وجـــه اليها من النظـــريات الاخـــرى •

(٣)

ان الافكار السابقة توجهنا نحو قراءة كتاب بوتومور الذى نقـدم له الآن ، وقد تزودنا بحصيلة من المعرفة حول بناء الماركسية بوصـفها علما اجتماعيا ، وحول الاطار النقدى الذى يمكن أن يستند اليه تحليل هذا النسق الفكرى أو « العالم الثورى » الذى نطـلق عليه مصطلح الماركسية . ولقد عالج بوتومور كلّ هذه الافكار معاجـة مستفيضة ، وبلغة واضـحة تماما ، تكشف عن وضوح تام فى الفكر تميـزت به فى الواقع كل كتابات الاستاذ توم بوتومـور ، التى قامت سلسلة عـلم الاجتماع المعاصر بنشرها .

وقد عـالج بوتومور قضايا عـلم الاجتماع الماركسى عبر خمسـة فصول ؛ الفصل الاول بعنوان مقدمة طرح فيه منهجه فى معالجة عـلم الاجتماع الماركسى ، ذلك المنهج الذى لا يقوم على مجرد ترديد مقولات هذا العلم وموضـوعاته ، وانما يهتم أساسا بالتفسـيرات والمعالجات اللاحقـة التى قدمها الكتاب الماركسـيون ، والتى أدت بهم الى تبنى مواقف سوسيولوجية بعينها ، ونقد مواقف أخرى . وأما الفصل الثانى فقد خصصه لعرض الماركسية بوصـفها نظرية اجتماعية وأوضـح فيه المبررات التى جعلت من الماركسية نظرية فى علم الاجتماع لها قضاياها ومنهجها واهتماماتها البحثية . ونجـد فى الفصل الثالث نقيض هـذه القضية ، اذ كرس هذا الفصـل لعرض المواقف الرافضـة للماركسية بوصفها علم اجتماع ، ومن ثم جعل عنوان هذا الفصل الماركسية ورفض علم الاجتماع . وفى الفصل الرابع ناقش العلاقة بين النظرية والممارسة فى الفكر الماركسى ، تلك العلاقة التى تحتل مكانة مركزية فى هذا الفكر . أما الفصل الاخير بعنوان عـلم الاجتماع الماركسى وعـلوم الاجتماع

الاخرى فقد كشف عن قدرة تأليفية عالية عند مؤلف هذا الكتـــاب حيث ناقش فيه الماركسية بوصفها نظرة للعـــالم فى صلتها بمختلف انســـاق الفكر السوسيولوجى الاخـــرى .

هذا وقد انقسم العمل خلال ترجمة فصول هـــذا الكتاب ، بحيث تولى الدكتور محمد على محمـــد ترجمة الفصلين الرابع والخـــامس ، والدكتور على عبد الرازق جلبى الفصول الاول والثانى والثالث .

ان هذا الكتـــاب رغم صغر حجمه ، ينطـــوى على فكر واضـــح ، ومعالجة عصرية ، ومناقشات وحجـــج تكشف عن أعلى درجات الفهـــم والاتساق المنطقى . وهذه هى الاسباب التى دفعتنا الى نقله الى اللغة العربية ، لكى يســـهم مع رفاقه من المؤلفات التى قدمتها سلسلة عـــلم الاجتماع المعاصر ، فى اثراء حـــركة الفكر والبحث السوسيولوجى فى العالم العربى .

الفصل الأول
مقدمة

المقـــــــدمة

يقال ان الحـــوار الذى دار حـــول علم الاجتماع الماركسى والذى استمر لمدة طويلة قد بدأ فى الواقع مع ماركس نفســـه ، وهذا ما ظهر فى تلك الفقرات القليلة ، والتى حـــاول فيها ان يوضح أهداف ومنـــاهج دراساته الخاصة،ولم يظهر فى اشاراته الاتفاقية واللامبالية الى كومت.

ولم تكن انتقادات ماركس لكومت ولكثير من تلاميذه فى فرنســـا وانجلترا موجهة نحـــو ما كان يرمى اليه كومت من بناء عـــلم اجتماعى عام أو نحو صياغته لقوانين تاريخية (ونعنى نحو نزعته الوضعية)[1] ، وانما كانت هذه الانتقـــادات موجهة نحـــو المذاهب الســـياسية التى اشتقت عنها . وكان الاسهام الذى قدمه كومت ، على حد تعبير ماركس، بائسا بالمقارنة باسهام هيجل . وهـــذه المقارنة فى ذاتها تعد مفيـــده ،

---

(١) ســـوف استخدم مصطلح الوضعية على طول هذه الدراســـة بالمعنى البالغ العمومية الذى يميز ذلك المدخل فى العلوم الاجتماعية والذى يعتبرها على نفس مستوى العلوم الطبيعيـــة فى اساسها وانها تهـدف الى صياغة قوانين علية عامة،وتقيم ادعاءاتها على المعرفة الصادقة وعلى تحليل الواقع الامبيريقى، وليس على الحدس الفلسفى ، وهكذا فانها تؤكد وحدة المنهج العلمى ، وتضع تمييزا حادا بين القضايا العلمية واحكام القيمة . وهنـــاك تفسيرات عـــامة ومفيدة فى :

D. G. Charlton, Positivist Thought in France during the Second Empire, 1852 — 1870 — (Oxford : Clarendon Press, 1959).

and Leszek Kolakowski, Positivist Philosophy (Harmondswor - the Penguin, 1972).

ذلك لان العنصر الرئيســى فى نظــرية كومت الذى لم يــكن ماركس متعاطفا معه على وجــه الخصوص ، هو قانون المراحــل الثلاثة الذى يفسر التغير التاريخى فى ضوء تطور الفكر ، وهو من هذه الناحية يشبه فلسفة التاريخ عند هيجــل .

وفى مناسبة اخــرى ، عندما كان ماركس يشير الى أفكار (بيسلى) E. S. Beesly ، الانجليزى الوضعى ، علق ماركس على الوضعيــة قائلا : « انها تتساوى مع تجاهل كل شىء وضعى » ، وينبغى ايضا ان نفهم هذا التعليق على انه نقد لذلك الميل الواضح بين الوضعيين اتباع كومت نحــو تأكيد العوامل الفــكرية والاخــلاقية اكثر من الاهتمــام بالتغيرات الاقتصادية والعلاقات الطبقية فى عملية التطور الاجتماعى .

ومن الواضح أن ماركس كان يعتبر نظريته الاجتماعية أكثر ارتباطا بالعلم الوضعى من وضعية كومت ذاتها ، وان هذا الجانب من فكره كان قد تبلور بوضوح منذ مدة طويلة قبل ان يطلع على كتابات كومت . ولقد استنتجنا ذلك ، فى الحقيقة ، من نفس المصــدر الذى اشتق عنه كومت افكاره ووجهات نظره ، ونعنى من كتابات ســان سيمون ، ولقد وجدت هــذه الفكرة ما يعضدها بعد ذلك استنادا الى معالم العــلم الاجتماعى الجــديد الذى قدمه لورنس فــون شتين L. Von Stein فى الطبعة الاولى من كتابه عام (١٨٤٢) عن الحركة الاجتماعية فى فرنسا ، والذى درس فيه المفكرين الاشتراكيين الفرنسيين .

ولكن هناك جانب آخــر فى فكر ماركس ، قد أخذه عن كتابات كانط وفيشته وهيجل . ولم تكن المشكلة الاساسية فى اطار هذه الافكار هى بلورة ذلك العلم الذى يمكن ان يقدم تفسيرا عليا دقيقــا للاحــداث

الاجتماعية ، وانما كانت المشكلة تتمثل فى كيفية التغلب على عملية الفصل بين ما هو « كائن » وبين « ما ينبغى ان يكون » ذلك الفصل الذى كان كانط قد اقامه وجاءت الوضعية لتحاول اعادة تأكيده ، بهدف بناء نظرية للاخلاق والسياسة ، فيصبح من الممكن حدوث التدخل العلمى فى سير الحياة الاجتماعية استنادا الى شىء ما غير الهوى او النزوة الذاتية • وظل ماركس يناضل بخصوص هذه المشكلة ، « وكيف يجد الفكرة فى العالم الواقعى ذاته» حتى توصل الى نقطة التحول الحاسمة فى فكره مع اكتشافه لمفهوم « البروليتاريا » ، والتى كانت فى نفس الوقت نتاجا ضروريا للمجتمع الرأسمالى الحديث وتجسيدا أو تمثيلا لمثال سياسى واخلاقى جديد فى العالم الواقعى •

وكان ماركس فى هذا التصور للبروليتاريا كطبقة ثورية ، وعموما فى نظرته لدور الطبقات الاجتماعية فى التطور التاريخى للمجتمع ، كان قادرا على ان يجمع بين هذين الجانبين فى فكرة معا — الوضعى والهيجلى — ولكن من الواضح على الاطلاق انه قد جمع بينهما على نحو متكامل فى التصور المنهجى لطبيعة العلم الاجتماعى العام ، اكثر مما قد وضعهما الى جانب بعضهما فى سياق تاريخى محدد من النوع الذى يخفى مشكلة التعارض ما بين التفسير والتقييم • ولم يقدم ماركس ابداً عرضا لمجموعة مناهجه بنفس الاسلوب الذى قدم به « دور كايم » مناهجه فى كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » ، او فى مقال مطول مثل الذى كتبه (فيبر) عن الموضوعية فى العلم الاجتماعى والسياسة الاجتماعية ، ولم تحظ كتاباته بأى اهتمام نقدى واسع خلال حياته ، على نحو كان يمكن ان يقوده الى الدفاع عن نظريته بطريقة متسقة • وهذا ما كان كروس Croce ، قد لاحظه مرة •• « ان المادية التاريخية لم تظهر بوضوح فى كتاب محدد وأساسى • ومن ثم ، كان

ينبغى اعادة بناء وجهات النظـر المنهجية لماركس ــ فى علاقاتها بهذين الجـانبين أو الخطين فى فكره والذين ميزناهما سلفا ــ من تعليقـات متناثرة وجزئية » ولقد اتاح هذا الفرصة لظهور مجموعة متباينة وهائلة من التفسيرات المتلاحقة .

وسوف لا اهتم فى هذه الدراسة الراهنة مباشرة بمجموعة مناهج ماركس[٢] ، ولكن سأهتم اساسا بتغـيرات الكتاب الماركسيين الذين جـاءوا فيما بعد ، والتى ادت بهم الى الدفـاع عن مجموعة قضـايا سوسيولوجية معينة ، والى نقد نظريات سوسيولوجية أخرى ، او الى التساؤل بطريقة عامة عن وضع علم الاجتماع كعلم للمجتمع .

ومن اجل هذا الهدف من الضرورى ان نقرر كنقطة انطـلاق ، ان تصورات ماركس كانت قادرة على ان تمهد لظهور علم اجتماع وضعى بالمعنى الواسع ــ هذا فى اتجاه ــ وان تقدم ــ فى الاتجاه الآخـر ــ اسلوبا فى التفكير قد اشير اليه عموما باعتباره فلسفة نقدية ، وان هذه الاحتمالات توجـد جنبا الى جنب فى فكره منذ البداية ، حتى ولو ان التأكيد فى كتاباته الاولى قد ظهر على انه يتجه اكثر نحو الهيجلية ، ثم أخذ يتجه أكثر نحو الوضعية فى كتاباته الاخيرة[٣] .

ويمكن لمجرد توضيح هـذا الاختلاف ان نقارن بين القضـايا التى

---

(٢) آمل أن أقوم بنشر نقد عام لوجهات نظـر ماركس المنهجية ، والتى سأقوم فيها بفحص كامل ــ اكثر مما اقدمه هنـا ــ للعلاقة بين فكر ماركس وبين الوضعية والامبيريقية والمشكلة الكلية المتعلقة بالعلم الطبيعى للمجتمع .

(٣) ومن ثم يمكن ان نقـرر ، ان الاسهام المحـدد لماركس كان يتمثل فى تحويل هذا الفكر (التصور الفعال للممارسة الذى بلوره صغار الهيجليين) الى نظرية للعمل أو السلوك والتى نشأ عنها فى السنوات الاخيرة علم الاجتماع الحتمـى . =

اثارها ماركس فى مؤلفه عن فيورباخ Theses on Feuerbach والتى تتعلق بفشــل فيورباخ فى ادراك أهميــة النشاط الثــورى النقــدى والممارســة ، وتلك التى تتصل بالفهم الرشيد للتلازم ما بين الظــروف المتغيرة والنشاط الانســانى او تغيير الذات كعمل ثورى ، وكذلك تلك القضايا المتعلقة بالحاجة الى تغير العالم ، بمثل الحاجة الى تفسيره ، او بدلا منها • ونقارن بين هذه القضــايا وما ذكره ووافق عليه ماركس فى مقدمة الطبعة الالمانية الثانية من كتابه رأس المال ، الجزء الأول ، والذى يعد واحدا من العروض القليلة الجادة لاعماله ، حيث نظــر ماركس الى الحركة الاجتماعية باعتبارها نتيجة طبيعية للظواهر التاريخية ، تحكمها القوانين التى لم تكن فقط مستقلة عن ارادة ووعى واهــداف البشر ، وانما هى على العكس ، تحدد اهدافهم ووعيهم واختيــــارهم — وعلق ماركس على هذا قائلا « ان الذى عرض هذا الكتاب كان يصف المنهــج الذى قد استخدمته بالفعل وهو المنهج الجدلى » • ولكن علينا ان نذكر هنــا ان ماركس فى كتــاباته الاولى قد انتهى فعــلا من صياغة الفكرة المتعلقة بالعــلم الوضعى للمجتمع عندما كتب فى المســودات الفلسفية والاقتصــادية (١٨٤٤) :

« ان العلم الطبيعى سوف يندمج يوما ما مع علم الانســان ، كما

= G. Lichtheim, From Marx to Hegel (London : Orbach & Chambers, 1971) . P. 14.

ولقد تبنى معلقون آخرون ، وجهة نظر قريبة من وجهة النظر التى ادافــع عنها هنا ، والتى مؤداها ان فكرة علم الاجتماع العلمى كانت موجودة دائما فى فكر ماركس • انظر مثلا : مناقشة البرشت ويلمر Albrecht wellmer للنزعة الوضعية الكامنة عند ماركس ، فى كتابه المعنون :
Critical Theory of Society
وسوف الخص فيما بعد نوع الحوار الذى اداره وليمر وآخرون عن النظــرية النقــدية •

سوف يندمج علم الانســان مع العلم الطبيعى ، وعندئذ سوف يوجـد هناك علم واحـد • او ان العلوم الطبيعية سوف تصبح اساس العـلم الانيسـانى» •

وفى كتابه الايديولوجية الالمانية (١٨٤٥) ، يذكر انه حينما ينتهى التأمل — في الحياةالواقعية — يبدأ العلم الوضعى الحقيقى،فى تصويره لعملية تطور البشرية • ومن ناحية اخــرى ، لا يزال يوجـد فى كتابات ماركس المتأخرة — برغم ظهــور علم الاجتماع الحتمى بوضــوح — والاعتراف بحرية الانســان وقدرته على الابداع وهكذا قدرته عــلى التدخــل بوعى وعن عمد فى تغيير سير الحيــاة الاجتماعية ، فى فقرات كثــيرة مثــلا مــن مقــاله عــن : Grundrisse (١٨٥٧— ٨) حــول تطور الفرد الانسانى الغنى والاكثر تمايزا فى المجتمع الحــديث والذى عليه عندئذ ان يناضل ضد القيــود التى تفرض عليه من جانب النســق الاجتماعى الرأسمالى ، وكذلك فى مقدمة مقاله عن : Enquete Ouvriere (١٨٨٠) ، والذى يحث فيه العمال الصناعيين على ان يقوموا بعمل من شأنه ان يعالج الامراض الاجتماعية التى يعانون منها •

ولتحقيق هــذين المطلبين — العلم والثــورة — تشكل تاريخ الفكر الماركسى خلال القرن الماضى ، كما حدث وتطــور هذا الفكر فى خضم التغيرات السياسية والاقتصادية العميقة ، وفى بيئة فكرية قد تأثرت الى حــد كبير بالنمو المترف للعلوم الاجتماعية • ولكن لن اعنى هنا بفحص هذا السياق الواسع ، وانما سأعنى من الان فصاعدا بتاريخ الافكار او بالتفسير السوسيولوجى للفكر الماركسى[٤] • وسوف يكون هدفى أولا :

---

(٤) ولمزيد من الدراسات حول هذه القضايا ، يستطيع القارىء الرجوع = الى كتابات :

الكشف عن الاسس النظرية لمحاولات تشكيل الماركسية كنسق فى علم الاجتماع ، وثانيا وزن الانتقادات التى وجهت ضـــد هذه المحاولات من منظور اولئك المفكرين الذين نظروا الى الماركسية باعتبارها وجهة نظـــر فلسفية للعالم او فلسفة نقـــدية للتاريخ ــ تلك الانتقادات التى تحولت الى مناقشات تعارض الرغبة فى أى علم اجتماع وضعى او امكانية وجوده .
ولقد انعكست هـــذه الموجات للخلاف والجـــدل على قضية العلاقة بين النظرية الاجتماعية والممارســـة الاجتماعية ، ولذلك يمكن التعرف بدقة على السمات المميزة لوجهات النظـــر المتعارضة من خلال معالجة هـــذه القضية ، والتى قد اصبحت اكثر من مرة محورا للمناقشات المنهجية بين علماء الاجتماع . وفى النهاية ، سوف اوضح الى أى حد وبأى اسلوب، قد تحقق التقدم فى تحليل الاطار النظامى والاتجاهات الرئيسية للتطور فى المجتمعات الحـــديثة ، او يمكن ان يتحقق هذا التقدم الآن ، بفضـــل استخدام المفاهيم الماركسية او ما يطلق عليه اســـم المنهج الماركسى .

= ستيوارت هيوجز
Consciousness and Society (London: Macgibbon & Kee, 1959),
خصوصا الفصل الثالث وجورج ليشتهايم
Marxism: An Historical and Critical Study,(London: Routledge & Kegan Paul, 1961) ,
يجد القارىء معالجة شاملة للمدرسة الماركسية فى مارتين جاى
The Dialectical Imaginatian: A History of the Frankfurt School and the Institute of Social Research, 1923 — 1950 (Boston : Little, Brown. 1973) .

الفصل الثانى

المــاركسية نسق نظرى فى علم الاجتمــاع

الماركسية نسق نظرى فى علم الاجتماع

لقد نمت الماركسية اساسا فى صورة علم للمجتمع ، وذلك خلال الفترة منذ وفاة ماركس فى عام ١٨٨٣ حتى قيام الحرب العالمية الاولى. ولقد افصح انجلز قبل اى شخص غيره ، عن هذا الفهم (برغم انه يمكن ان يجد ما يؤكد ذلك فى وجهات نظر ماركس الخاصة ، كما اشرت). وكذلك عبر عنه بوضوح فى خطبته التى القاها بمناسبة تأبين كارل ماركس ، وذلك عندما قال « انه كما اكتشف داروين قوانين تطور الطبيعة العضوية ، فان ماركس قد اكتشف قوانين تطور التاريخ الانسانى » ، ثم اصبح التعديل الذى ادخله انجلز على النظرية ، يأخذ عنوان الاشتراكية العلمية — والذى كان كوتسكى قد وافق عليه — باعتبارها مذهب الديموقراطية الاجتماعية الالمانية ، والمجموعة الدولية النازية •

وقدمت الماركسية طبقا لهذا التصور — فى ضوء التغيرات فى اسلوب الانتاج وتكوين الطبقات والصراع بينها — تفسيرا عليا للتطور التاريخى للمجتمعات الانسانية ، ولأصول وتطور الرأسمالية الحديثة على وجه الخصوص ، والتى امكن التعبير عنها فى صورة « قوانين » تاريخية • وامكن ايضا فى ذلك الوقت الاستنباط من هذه القوانين عملية الانهيار الضرورى للرأسمالية والتحول الى الاشتراكية • وكان للماركسية استنادا الى هذا المظهر كعلم وضعى ، اثرها على علم الاجتماع فى اثناء مراحل تكوينه ، والذى كانت قد ظهرت به كنسق فى علم الاجتماع — بمعنى علم عام وشامل للمجتمع — واثارت ردود فعل كبار المفكرين فى علم الاجتماع وتمت الاستعانة بهذا النسق بدوره فى

تقديرات علم الاجتماع النقدية لافكاره • وظهرت الماركسية وغيرها من نظريات علم الاجتماع باعتبارها اطرا فى التفكير متصارعة ، تتنازع على نفس الميــــدان •

ولقد دافع العديد من المشاركين فى اول مؤتمر دولى لعلم الاجتماع عام ١٨٩٤ عن النظرية الماركسية «١» ، وكرس جانبا كبيرا من المؤتمـــر التالى عام ١٩٠٠ لمناقشة المادية التاريخية(٢) • ونشر سوريل Sorel فى نفس الفتـــرة مقالا نقديا مطولا يتنـــاول عـــلم الاجتمـــاع عنـــد دور كايم(٣) ، بينما ظهـــــر فى ايطـــاليا العرض الذى قدمه لابريولى Labriola للمادية التـــــــاريخية(٤) ، وكذلك مقـــــالات كروس

---

(١) Annales de L'Institut International de Sociologie (Paris - Giord- - et Briere, 1895) .

واحد من مراسلى ، Enrico Ferri نشر كتابا بعنوان :

Socialism and Positive science (Darwin — spencer — Marx) (Rome, 1894, English trans, Independent Labour Party 1906).

والذى لجأ فيـــه الى التظاهر بأن « الماركســـية الاشتراكية ـ هـــى النوع الرحيد ذو المنهج الوضـــعى والقيمة العلمية ••• اذا كانت فقط مثمرة وعملية تماما فى الحياة الاجتماعية ولتلك الثورة العلمية الحديثة ••• وافتتحت العديد من المركز المتخلفة عن طريق نعاش المنهـــج التجريبى فى كل فروع المعـــرفة الانســـــانية » •

(٢) Annales, VIII (Paris - Giardet Briere, 1902).

(٣) G. Sorel, Les Theories de E, Durkheim : Devenir Social, (April - May 1895).

هذه المجلة،التى اسسها سوريل وكتب فيها أثناء تواجده القصير من عام ١٨٩٥ الى عـــام ١٨٩٨ ، نشرت مقالات لبعض القادة الاوربيين الماركســـيين ودارسى الفكر الماركسى ، بما فيهم انجلز وكوتسكى وبلوخـــونوف ولبريول وكروس ، وفى احد اجزاءها ناقشت الكثير من المؤلفات الحديثة لعلم الاجتماع والتاريخ الاجتماعى •

(٤) Antonio labriola, Del materialismo storico (Rome, 1896)

وترجمت الى الانجليزية تحت عنوان

Essays on the Materialistic Conception of History. (Chicago - Charles kerr, 1908) .

Croce عن النظرية الماركسية[٥] ، وتميزت المقالات الاخيرة خاصة بما اثارته من تساؤلات نقدية حول تصور الماركسية باعتبارها نظرية علمية • ويمكن ايضا ان ندرك الاهمية المتزايدة للماركسية بالنسبة لتطور علم الاجتماع ، وذلك فى اعمال كبار المفكرين فى هذا العلم • فلقد استند فرديناند تونيس Tonnies فى مؤلفه عن المجتمع المحلى والرابطة عام ١٨٨٧ بشدة على تحليل ماركس للمجتمع الرأسمالى • وكان ماكس فيبر ، فى جانب كبير من اعماله مشغولا بالمواجهة النقدية للفكر الماركسى ، وفى صياغته للتفسير البديل لاصول الرأسمالية الحديثة ، وفى تقييمه للمكانة المنهجية للتفسير الاقتصادى للتاريخ ، وفى علم الاجتماع الدينى ، الذى وضعه على انه نقد موضوعى للتصور المادى للتاريخ[٦] وقدم باريتو Pareto فى مؤلفه عن Systemes Socialistes تحليلا منسقا للنظرية الماركسية ، والتى كان قد جردها من عناصر مثل فكرة الصراع الطبقى،ثم قام بادماجها فيما بعد ، ولكن بشكل مغاير فى نسقه الفكرى الخاص فى علم الاجتماع • وخصص دور كايم جانبا لا بأس به من العدد الاول لدولية علم الاجتماع Annee Sociologique ليقدم عروضا لعديد من الاعمال الماركسية ، (بما فيها عرضه الخاص لكتاب جروس Grosse

---

(٥) كتبت بين عامى ١٨٩٥ و ١٨٩٩ ونشرت فى مجلد تحت عنوان
Materialismo storico ed economia marxisica,
وترجم للانجليزية فى جزء كتبه ليندس بعنوان
Historical Materialism and the Economics of karl Marx (london : - Howard Lotimer, 1913) .

(٦) للتعرف على العلاقة بين ماركس وفيبر ، انظر على وجه الخصوص كتاب كارل لوبيس
Max Weber und Karl Marx, (1932)
الذى يعتبر سببا لظهوره فى الترجمة الانجليزية باختصار •

عن أشكال الاسرة والاقتصاد) ، ومع انه قد اعقب ذلك ندرة الاشارة الى الكتابات الماركسية ، وفى أثناء محاضراته عن الاشتراكية — والتى تخلى عنها قبل أن يصل الى النقطة التى يجب عندها فحص نظرية ماركس — ظهرت هناك بعض التلميحات التى تدل على أن دور كايم قد درك عمق العلاقة بين الماركسية وعلم الاجتماع ، وهكذا تخيل على نحـــو غير مباشر أن المفكرين الماركسيين هم أعداؤه الاساسيين •• ولقد اكتسبت (الاشتراكية) فى الوقت الحـــديث طابعا علميا محددا • ومن المحقق انها بذلك ربما قد ساعدت العلم الاجتماعى أكثر مما ساعدها هو • ذلك انها أثارت التأمل ، وحفزت النشاط العلمى ، ودعت الى البحث،وطرحت مشكلات ، الى ذلك الحد الـــذى اندمج فيه تاريخ الاشتراكية فى أكثر من جانب واحد بتاريخ علم الاجتماع[٧] •

ولكن الماركسية الذى نظر اليها باعتبارها نظرية علمية حول التطور الاجتماعى قد واجهت نوعين رئيسيين من الصعوبات ، كان قد ذكرهما النقـــاد ، وأصبحت موضع جـــدل بين الماركسيين أنفسهم فى المناقشة التعديلية التى بدأت من خلال نشر بيرنشتين Bernstein لمؤلفه :

Die Voraussetzungen des Sozialismus und die Aufgaben der Sozialdemokratie

فى عام ١٨٩٩[٨] • فاذا كان للماركسية أن تصبح علما وضعيـــا ، فى المحل الاول ، ينبغى أن تبنى استنتاجها كلية على فحص الخبرة ، وعلى تصوير كاف للوقائع الاجتماعية•وتنطوى بعض جوانب أفكار بيرنشتين

---

(٧) Emile Durkheim, Le Socialisme (Paris - F. Alcan, 1928) pp. 3 — 4 .

(٨) ترجم للانجليزية تحت عنوان

Evolutionary Socialism (New york - Schocken Books - 1961).

على قول مؤداه،ان اتجاهات التطور فى المجتمعات الرأسمالية الغربية ــ لا تلتقى مع تلك التى اســتنتجها ماركس ، وان النظرية فى حاجــة الى تعديل لكى تأخــذ فى اعتبارها التغيرات الحــديثة • ولخص بيرنشتين فى مذكرات وجدت بين أوراقه وجهة نظره كما يلى :

لم تنحسر اعداد الفلادين ولم تختفى الطبقة الوسطى ، ولم تتزايد الكوارث فى حجمها ، ولم يزداد البؤس وعبودية الارض • وانما هناك زيادة فى الاعتماد والتعــرض للخطــر والمسافة الاجتمــاعية والطابع الاجتماعى للانتاج والوفرة الوظيفية لاصحاب الملكيات •

وأجرى بيرنشتين فحصا مفصلا للتغيرات الاقتصادية والسياسية التى جعــلت فى رأيه ، من الضرورى الاهتمــام بتعـــديل النظــرية الماركسية[٩] • وتتعلق أكثر العناصر أهميةفى هذا الجانب من دراسته بالبناء الطبقى المتغير • اذ لم يحــدث أى نوع من الاستقطاب للطبقات على النحو الذى كان يتوقعه ماركس ، وكان يصاحب اسهام رأس المال فى المشروعات الضخمة نمو وتطور أعمال جديدة وصغيرة أو متوسطة الحجم،وأصبحت الملكية أكثر انتشارا ، وارتفع المستوى العام للمعيشة وتزايدت الطبقــة الوســطى بدلا من أن تقل فى عــددها ولم يكتسب بناء المجتمع الرأسمالى طابع البساطة،وانما أصبح أكثر تعقيدا وتمايزا • واستمر بيرنشتين فى هذا التحليل ليتطرق الى مسألة الكوارث ونظرية انهيار الرأسمالية ، وهنــا يذهب الى أن الكوارث أصبحت أقل حــدة ،

---

(٩) يوجد تحليل مفيد وقيم لوجهة نظر برنشتين فى كتاب بيتر جــاى بعنــــــوان :
The Dilemma of Democratic Socialism (New york - Columbia University Press, 1952) .

وطالت فترة الرخاء ، نتيجة للمؤثرات المتباينة التى ساعدت على تخفيف التقلبات التجارية والتغلب جزئيا على فوضى السوق • الا انه ، كما أشار هو ، قد استمرت دورة التجارة بشكل أقل حدة ، وظل هناك نوع من الخطر ، الذى كان من الصعب التغلب عليه كلية فى النظام الرأسمالى •

وكانت الاستنتاجات السياسية التى قد استخلصها بيرنشتين من تحليلاته هذه متمثلة فى القول بأن التحول الى الاشتراكية يمكن أن يحدث ، ولكن ليس فى صورة الصراعات المأسوية بين الطبقات البورجوازية البروليتاريا ، وانما بأسلوب أكثر تدريجية ، من خلال تخلل النظم الاشتراكية الى الرأسمالية ، بفضل نشاط حركة الطبقة العاملة وتحالفها مع جماعات أخرى من السكان •

وكانت المناقشات التى تلت ذلك ، ونخص بالذكر موقف كوتسكى Kautsky من مسألة الكوارث ، مخيبة للامال من جانب الموقف العلمى للنظرية الماركسية ، طالما كان قدامى الماركسيون يركزون انتباههم أساسا على الدفاع عن المحور الثورى للنظرية ضد النزعة الاصلاحية ، أو على قضية من غير قضايا العلم وانما من قضايا الالتزام السياسى• والواقع أن مصطلح «التعديلية» بالمعنى الازدرائى الذى أعطى لها ، كان مصطلحا مضللا للغاية من المنظور العلمى ، لانه اذا كان على النظرية الماركسية أن تشكل علما امبيريقيا للمجتمع ، ينبغى أن تخضع النقد المستمر المترتب على الاكتشافات الجديدة والافكار • ويمكن أن يكون لمفهوم التعديلية بهذا المعنى قيمة أعلى بدلا من اعتبارها جريمة عظمى•

ولقد ظلت الموضوعات التى طرقها بيرنشتين تحتل محور المناقشات

التى دارت حول علم الاجتماع الماركسى طوال السبعين عاما الماضية، وتتمثل القضية الكبرى التى أثاروها ولا يزالوا يناقشونها ، فى تلك التى تتعلق بالتحليل السوسيولوجى المناسب للرأسمالية الحديثة[١٠] .

ولقد أكد التطور الاقتصادى والتغيرات المستمرة فى البناء الطبقى والمهنى ، والاضطرابات السياسـية ، بعض الاحتمالات القديمة وكذلك انتشرت ظواهر اجتماعية جديدة فى حاجة الى بحث وتقييم — وذلك مثل التحسينات الفعلية فى ظـروف الطبقة العـاملة من ناحية الاستهلاك ، والعمل ووقت الفراغ ، الى جانب الاحتفاظ بالفروق الهائلة فى الثروة، والمنزلة أو الهيبة والتأثير السياسى بين الطبقات الاساسية ، والزيادة المستمرة فى اعداد الطبقة الوسطى والتدهور النسبى فى ظروف العمال الصناعيين اليدويين ، والدور السياسى غير المؤكد والمستقر للطبقـات المختلفة،والاستقرار الاقتصادى والنمو الثابت للرأسمالية خلال الثلاثين عاما الماضية ، والدور المتعاظم للدولة فى الادارة الاقتصادية ، واتساع نطاق الادارة البيروقراطية ، وارتفاع شأن الخبرة الفنية ، والتـوسع الضخم فى الخـدمات الاجتماعية والتغيرات الثقافية (وهـذه فى ذاتها ما هى القوى التى انتجتها ؟) والتى عملت على ظهور أساليب حيـاة جديدة ومصالح سياسية جديدة .

وقـد يبدو من السهل الآن ، من ناحية — أن نقوم بتحـليل هـذه

---

(١٠) وهى تعتبر اشارة قيمة هنا أن لوكاش الذى،كما سنرى،نسخ التراجم الكلية المختلفة للماركسية فى عام ١٩٢٠ ، وصل الى نتائج مشابهة فى أحـد تأملاته الاخيرة للنظرية لماركسية ، عندما اشار الى مشكلة « التحليل الحقيقى للطبيعـة المـلازمة فى الـوقت الحـالى : والتى فشـلت مهمة الماركسية فى اداركها الى ابعد حد » وللتمهيد انظر كتاب ايستيفان ميزورس بعنوان Aspects of History and Class Consciousness (London: Routledge & Kegan paul, 1971).

الظواهـــر لانها قد استغرقت وقتا طويلا لكى تدعم ذاتها ولتفصح عن مغزاها الحقيقى •

ولكنى أعتقد أن الصـــعوبات قد اشتدت فعـــلا اذ تعد المجتمعـــات الرأسمالية فى يومنا الراهن بالغـــة التعقيد والتمـــايز فى تجمعاتها الاجتماعية والمهنية وفى أوساطها الثقافية ، عما كان عليه الحال فى نهاية القرن التاسع عشر ، ولهذا تعتبر مهمة فهم العـــلاقات المتداخلة بين عناصرها عملية بالغة التعقيد أيضا وشديدة المـــراس • وأكثر من ذلك ، تستمر عمليات التغير باتجاهاتها المسيطرة ، وعلى نحو لا ينتهى ،الى حد يصعب معه أن نقرر ما الذى تنطوى عليه ؟ ومـــاذا يحتمل أن تصبح عليه ؟ وتنشأ الصعوبة الثانية عن تطور علم الاجتماع ذاته ، فهنـــاك كثير من التحولات وأكثر منها وقفات ، معظمها حدثت خلال قرن دام فيه الحوار ، واسهمت فى توضيح كيف كانت الموضوعات أو الأهداف التى حاولوا التوصل اليها مراوغة جدا من خـــلال مجموعة الاطر النظـــرية والتصورية فى علم الاجتماع •وكانت التفسيرات السوسيولوجية الحديثة بطبيعتها التجـــريبية أو المؤقتة تنطـــوى على درجـــة من التعارض مع الاتجاهات الدوجماطيقية فى الفكر الماركسى (كما تتعـــارض كذلك مع الاتجاهات الوضعية والوظيفية التى اخـــذت عن علم الاجتماع لدى دوركايم) • وكان ينبغى على علم الاجتماع الماركسى فى الوقت الحاضر أن يكون قادرا على مدنا بتحليل واقعى للمجتمع الرأسمالى ، وتحـــليل واقعى لاشكال المجـــتمع التى انبثقت عن الثورات التى حفـــزت عليها الماركسية ذاتها ، والتى أظهـــرت كثيرا من السمات التى تنطـــوى على اشكاليه من وجهة نظر النظرية الماركسية • وسوف أعود الى بعض هذه المسائل فى الفصل الاخير ، عندما أحاول المقارنة بين اسهامات الماركسية

واسهامات غيرها من مدارس سوسيولوجية حتى يتسنى لنا فهم التيارات الاجتماعية الحديثة •

ويبدو ان بيرنشتين ، معتقدا انه وضعى ، وفى مقال أخير له (عام ١٩٢٤) ، قد ذهب الى القول «لقد جعلتنى طريقتى فى التفكير عضوا فى المدرسة الوضعية فى الفلسفة وعلم الاجتماع وأود أن تكون محاضرتى (كيف يمكن أن تكون الاشتراكية العلمية ممكنة ؟) كدليل على اتجاهى هذا !»[١١] • ولكن برغم انه كان قريبا من الوضعيين فى رغبته تطوير الماركسية كعلم أمبيريقى ، فانه قد انشق عليهم فى اهتمامه بصياغة نظرية اخلاقية للاشتراكية ، والتى كان فيها متأثرا أساسا بأدياء الكانطية الجديدة فى الفلسفة الالمانية •

وهكذا شرع برنشتين ، فى أحد اجزاء كتابه ، يعالج المشكلة الرئيسية الثانية للماركسية باعتبارها علما امبيريقيا ، ونعنى تلك المتعلقة بالعلاقة بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون ، بين الاشتراكية كنتاج ضرورى لتطور الرأسمالية والاشتراكية كمثال أخلاقى ، بين العمليات التاريخية الموضوعية وبين الرغبات الذاتية ، وبين صور نضال الانسان وبين مثله • ولكنه لم يتقدم كثيرا فى مناقشة هذا الموضوع ويتعدى التصريح بوجود العنصر المثالى فى الحركة الاشتراكية وأهميته •

ولقد كانت هناك مجموعة أخرى من المفكرين ـــ الماركسيين النمساويين ـــ قد طوروا بعمق أكبر مناقشة الماركسية باعتبارها علما

---

(١١) نقل عن طريق بيترجاى فى كتابه :
The Dilemma of Democrotic Socialism, pp. 153 - 154,

اجتماعيا ، وكذلك العلاقة بين العلم والاخـلاق[١٢] • وقام اوتوباور Otto Bauer بوصف السمات الاساسية لهذه الجماعة فيما يلى :

« لقد جمع الطابع الخاص للاسهام الفكرى بين هذه الجماعة ، أكثر مما أسهم التوجيه السياسى الخاص فى الجمع بينهم • فالجميع قـــد نشــأوا فى فترة كان يوجه فيها أشخـــاص مثل ستامــلر Stammler ونيدلباند Wendelband وريكارت Richert هجـــومهم نحو الماركسية بحججهم الفلسفية ، حيث كانوا ملتزمين بالانشغال فى حوار مع ممثلى الاتجاهات الفلسفية الحديثة • واذا كان ماركس وانجلز قد أخذا عن هيجل ، وأخذ الماركسيون المتأخرون عن المادية ، فان الماركسيين النمساوين قد انطلقوا من كانط وماش Mach . وكان على هـــؤلاء الماركسيين النمساويين من ناحية اخـــرى ، أن يشتركوا فى الحـــوار مع ما يعرف باسم المدرسة النمساوية للاقتصاد السياسى ، وقد أثر هـــذا الحـــوار كذلك فى منهج وبناء فكـــرهم • وفى النهـــاية ، كان عليهم أن يتعلموا جميعهم كيف يمكن تطبيق التصور الماركسى للتاريخ علىظواهر بالغة التعقيد قد عجـــز عن تحليلها كل استخـــدام سطحى للمنهج الماركسى[١٣] •

---

(١٢) شكلت هـذه المجموعة عن طـريق ماكس أدلر ، أوتو بوبر ورادولف هيلفيردنج وكارل رينر • معا ، بالرغم من الاختلافات النظرية والسـياسية ، هم شكلوا واحـدا من اعظم المدارس الشهيرة عن الفكر الماركسى ، كمدرسـة مقارنة بدأت بما وجدته حـول مدرسة فرانكفورت للبحث الاجتماعى • ولكن عملهم مازل مهملا ، وقليلا جدا ما ترجم منه الى الانجليزية •

(١٣) نشرت كمقالة افتتاحية فى
Otto Bauer, Austro - Marxismus, Arbeiter - zeitung (Vinna, 3 November 1927)

وتتمثل الانجــازات الرئيسية للماركسيين النمساويين فى تحليلهم لمنطق الماركسية باعتبارها نظــرية سوسيولوجية ، وكذلك فى توسيعهم نطاق البحث الماركسى ليشمل ظواهر جديدة ومجالات جديدة من الحياة الاجتماعية • وذهب ماكس أدلر Max Adler فيلسوف هذه الجماعة الى أن ماركس قد أقام أساس علم الاجتماع العلمى مع تصوره للبشر وتنشئتهم ، الذى جعــل من الممكن الجمع بين الطبيعة والمجتمع داخل نطــاق نسق التفسير العــلى ، وفى نفس الوقت ، كان علم الاجتماع الماركسى هــذا متفقا تمامـــا مع الفلسفة الكانطية ، طالما كانت نظرية مــاركس نوعــا مــن النقــد ، كمــا فى تصــور كــانط ، حــددت المقولات التى يمكن من خلالها فهم الكيان الاجتمــاعى للانسان[١٤] • ولكن ادلر لم يكن مستعدا لقبــول التمييز الكانطى بين عالم الاحــداث الاجتماعية أو الطبيعية المحددة على نحو سلبى ، وبين عالم الاحــكام القيمية التى تحدد ذاتها على نحـــو مستقل ، ولذلك فهو لم يوافق مع الكانطيين المحدثين الذين ذهبوا الى أن الماركسية كعلم وضعى كــانت فى حاجة الى أن تكمل بفلسفة أخلاقية ، وانما ادعى بدلا من ذلك ، انه قد انبثق عن نظرية ماركس علم وأخلاق •

لقد تحول الميكانيزم العلى للتاريخ مباشرة وبواسطة التفسير العلمى له ، الى نوع من التعليل بدون أن يعانى نتيجة لذلك من أى تصـــدع فى طابعه المحدد سببيا • ومن السهل أن تدخل الان أية معرفة عــلمية تتعلق بموقف اجتماعى محدد كسبب فى ميكانيزمها العلى •• ويظهــر هناك عن وجهة النظر هذه على الاقل •• امكانية التحقق من رغبة قديمة

---

(١٤) انظر على وجه الخصوص عرض لوجهة النظر هذه فى مقالته بعنوان Der Soziologische Sinn der lehre von Karl Marx (Leipzig : C. L Hirsch feld, 1914).

للفلسفة مثال السياسة التى تستند الى أساس علمى..الاسلوب العلمى للديـــــاة الاجتماعية[١٥] .

وسوف أقوم بفحص هذا التوفيق المقترح بين العـــــلم والاخلاق بتعمق أكثر فى الفصل الاخير ، وأردت هنا أن أركز على صياغة أدلـــــر لمبادىء علم الاجتماع الماركسى . فلقد بلور ادلر فى مؤلف أخـــير له، قصد به أن يقدم عرضا منسقا للنظرية الماركسية ، ويعبر عن وجهة نظره بشكل أكثر اكتمالا — تلك المتعلقة بالتصور المادى للتاريخ كاطار للتفسير العلى ، بينما يناقش فى تفصيل أدق مظـــاهر تعقيد العلية الاجتماعية ، وطبيعة الدوافع كأسباب ، والصعوبات الخاصة التى تواجه محاولة اقامة ارتباطات علية دقيقة فى كثير من المواقف المعقدة . وقام ايضا بتحليل فكرة التنشئة الانسان، والتى اعتبرها بمثابة التصور السوسيولوجى الاساسى فى فكر ماركس ، وطرح التســـاؤل الكانطى (الذى كان زيمل قد طرحه فى صورة مماثلة) : (كيف يمكن أن تكون عملية التنشئة الاجتمـــــاعية «المجتمع» ممكنة ؟) ولكنه قدم ملاحظة اضافية هامة مؤداها طـــــالما أن تساؤل كانط حول كيف يمكن أن تكون الطبيعة ممكنة للوعى الانسانى، كان قد تم صياغته بعد تطور العلم النيوتونى ، فان السؤال المتعــــلق بامكانية المجتمع قد طـــرح بعد صياغة ماركس للنظرية العلية للعمليات الاجتماعية .

---

(١٥) نشرت فى جزئين تحت عنوان :
Lehrbuch der materialistischen Geschichtsauffassung
(Vienna, 1930 - 2) هذه الاجزاء أعيد نشرها ، معا بجانب الجـزء الثالث
والتى ظلت فى مسودات ، تحت عنوان عام باسم
Sozioligie des Marxismus (vienna: Europaische verlagsanstalt, 1964).

ولقد شارك كل الماركسيون النمساويون فى تصور أدلر للماركسية باعتبارها نظرية علمية ، الذين اعتبروا أن مهمتهم الاساسية تتمثل فى تطوير النظرية بواسطة الاعتماد على البحث الامبيريقى والمواجهة النقدية مع المذاهب السوسيولوجية والاقتصادية الاخرى . ولكن برغم انهم احتفظوا بهذا الاتجاه العلمى والنقدى ، الا أنهم لم يكونوا كغيرهم من المراجعين الذين اتبعوا أسلوب برنشتين ، اذ كان أول تقرير منشور لهم فى عام ١٩٠١ بمثابة هجوم على هذا النوع من المراجعة للماركسية. ونشرت الدراسة النقدية الرئيسية لاراء برنشتين على يد الماركسى الامريكى ــ لويس بودين Louis Boudin الذى كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالماركسيين النمساويين (وابتكر فى الحقيقة هذا المصطلح ليصف به هذه المدرسة)[١٦] . ولم يكن هناك على الاقل فى الفترة القديمة السابقة على الحرب العالمية الاولى ، أية اهتمام خاص بتلك التطورات فى الرأسمالية (مثل البناء الطبقى المتغير) والذى أمكن تفسيره كدفاع برنشتين التبريرى عن السياسات الاصلاحية، وانما على خلاف ذلك فان موضوعات مثل تركز رأس المال، ونمو الامبريالية والصراعات الدولية وغيرها من مشكلات متباينة ومحددة لم يسبق أن عالجها ماركس بالتفصيل ، ومن بينها المغزى الاجتماعى للصراع القومى ، والقومية فى علاقتها بحركة الطبقة العاملة ، أو العلاقة الدقيقة بين البناء الاقتصادى والبناء الايديولوجى المحدد «الفوقى» مثل النظام القانونى.

وقام هلفردنج Hilferding ، فى دراسته الضخمة عن

---

(١٦) انظر كتاب لويس بودين بعنوان :
The Theoretical System of karl Marx in the light of Recent - Criticism (chicago, 1907, reprinted New york: Monthly Review Press, 1967).

Das Finanzkapital ألتى أخذت عنوانا فرعيا ، دراسة لاحدث تطــور للرأسمالية ، بتحليل تركيز ملكية المنشآت ، واندماج رأس المال الصناعى والمالى (البنكى) ومحاولة التحكم فى الاقتصاد ككل من خلال اتحــادات المنتجين والاتحادات الاحتكارية ونمو نزعات الحماية المترتبة على ذلك ، واشتداد الصراع السياسى والاقتصـــادى بين الدول الرأسمالية ، واتســـاع نطـــاق الاستعمار كوســـائل فى توسيع مجـــال الاســـتغلال الاقتصادى والاحتكار القومى • ولقد نجم عن كتاب بـــــور Bauer حول مشكلة القوميات فى الامبراطورية النمساوية الهنجارية ، الـــذى ناقش طبيعة الثقافات القومية واستعان مرة ثانية بالتحليل الماركسى لشكلة اليهود ، نجم عن هذا الكتاب أيضا نظرية الامبريالية ، الذىنظر اليها بور على انها نتاج للتدهور الاقتصادى والبحث عن مجالات جديدة للاستثمار أكثر ربحـــا •

ويمثل كارل رنر Katl Renner خطا أصيلا اخر فى البحث ، ذلك الذى نشر عام١٩٠٤دراسته للنظم القانونية الذى حاول فيه تطوير نظرية ماركسية فى القانون التى قد اشتملت ـــ الى جانب التحـــليل الشـــكلى للمعايير القانونية ـــ على دراسة امبيريقية لفكرتين متجاورتين ، أصـــل والوظيفة الاجتماعية للقانون : وظهر هنـــــاك فى البداية وفى نهـــاية التحليل القانونى نظرية اجتماعية للقـــــانون تربطه بكل العناصر غـــير القانونية فى حياتنا ، وتسهم فى تنسيقها ، وذلك شأن الترس فى الية الاحداث الاجتماعية ككل •

ولقد انتقـــــل الماركسيون النمساويون فى كتاباتهم المتأخرة ، الى مشكلات أخـــرى بما فى ذلك المشـــاكل التى ترتبت على التغــيرات فى البناء الطبقى للمجتمعات الرأسمالية ، وتفسيراتها الجديدة • ثم قـــام

ماكس أدلر ، فى مقالين اخرين عن الطبقة العاملة نشرهما عام١٩٣٣[١٧] فى ضـــوء فشل السنوات الاربعة من الكوراث الاقتصادية عن أن تحدث نظرة أكثر ثورية بين الطبقة العاملة فى أوربا ، قام بفحص دلالة ومغزى التمايز الاجتماعى المتزايد ، وتطور الارستقراطية العمالية ، التى ربط بينها وبين بيروقراطية تنظيمات العمل (كما فعل ميشيلز منذ مدة طويلة). وأضاف رينر بعض العناصر الجديدة الى النظرية الماركسية للطبقـــات ، بينما أكد انه استمر يستخدم المنهج الماركسى ، فى مقالين اخـــرين كانا قد تم نشرهما بعد وفاته[١٨] .

وكان رينر قد قام فى المحـــــل الاول بتحليل نمو طبقة جديدة من المديرين والعاملين المأجورين التى أطلق عليها اسم «طبقـــة الخـــدمة» وذهب الى انه فى تطور المجتمعـــــات الرأسمالية كانت الطبقتـ ـــان الاســـاسيتان هما طبقة الخـــدمة والطبقة العـــاملة ، وزعم أن هـــاتين الطبقتينقد تحركتا فىاتجاه الاقترابببعضهما بل مالتحتى الى الاندماج ومن ثم ، قد تميزت هذه المجتمعات باختفاء الطبقات المتناقضة، وغياب اى طبقة حاكمة محددة بوضوح ــ وثانيا ، وضع رينر فى مناقشـــــته العامة لمشكلة الطبقة ، معالم مراجعة كاملة للنظرية الماركسية عندما ذهب الى انه قد ظهـــر هنـــاك انـــواع اخـــرى من السيطرة والاســـتغلال الى جانب تلك التى تمارسها الطبقات التى تكونت على أساس ملـــكية وسائل الانتاج كما ان المدرسة الماركسية قد فشلت فى البحث عن أساس

---

(١٧) Wandlung der Arbeiterklasse, Der kampf (September, October 1933) .

(١٨) Karl Renner, Wandlungen der modernen Gesellschaft: zwei Abhandlungen uber die probleme der Nachkreigszeit (vienna: Wiener Valksbuchhandlun 1953).

منسق أو دراسة كل العلاقات الممكنة والتاريخية للسلطة[١٩] .

وانتقل أيضا الماركسيون النمساويون بعـد الحرب باهتمامهم الى ظواهر أخرى جديدة . فقاموا بتحليل الثورات التى حدثت بعد الحرب وخصائص ونتائج الثورة الروسية ، وحاولوا تقييم سياسات وممارسات الحركات الثورية فى عـلاقاتها بالديموقراطية ، واحتل موضـوع الديموقراطية أهمية متزايدة فى دراسـاتهم مع ظهور الحركة النازية فى المانيا والنمسا واجروا بحثا فى نفس السياق (الثورة والديموقراطية) . حـول نمـو وقيـام مجـالس العمـال بوظـائفها ـ فى الفتـرة التى تلت الحرب مباشرة ، ذلك الموضوع الذى نشر عنه ماكس ادلـر كتابا مختصرا[٢٠] وسـوف نعود مرة ثانية الى هذه الدراسـات التى تعالج مشكلات فى الميدان الذى ترتبط فيه النظرية الاجتماعية بالعمـل السياسى ارتباطا وثيقا ، وذلك فى الفصل الاخير .

وكذلك أثير تساؤل عما اذا كان تطور علم الاجتماع الماركسى قد تقدم كثيرا وتجـاوز المرحلة التى وصل اليها فى مناقشـات المراجعيين ، وفى دراسـات الماركسيون النمسـاويون . ثم نشر باكارين Bukharin فى

---

(١٩) هذا الموضوع قد تطور متأخرا ، فى ضوء الخبرة فى مجتمعات اوربا الشرقية الاشتراكية ، عن طريق ستانيسلواو سوسكى فى :
Class Structure in Social Consciousness (london: Routledge & kegan paul, 1963),

وبأسلوب اكثر عمومية عن طريق رالف داهر ندورف
Class and Class Conflict in Industrial Society (Loudon : Routledge & kegan paul, 1959).

(٢٠) Demokratie und Ratesystem (vienna: Sozialistiche Bucherei Brand, 1919).

عام ١٩٢١ كتـــابا يستوفى فيه علم الاجتمـــاع الماركسى[٢١] والذى كان من بين سماته الاكثر تشويقا محاولته اجراء مناقشة نقدية لافكار علماء اجتماع اخرين ــ بما فى ذلك ماكس فيبر وروبرت ميشيل ــ بدلا من التحرك داخل دائرة التراث الماركسى • وكان مقال أوتو نوراث Otto Neurath يمثل أكثر العروض قوة للماركسية كعلم وضعى أو حتى ســلوكى ، ذلك الذى تناول فيه علم الاجتمـــاع الامبيريقى[٢٢] الذى ظهر فيه تأثير الماركسيون النمساويون ودائرة فيينا • وتعد الماركسية ، فى نظر نوراث ، من بين كل محاولات انشاء أو تكوين عــلم اجتمـــاع غير ميتافيزيقى ، وانما كالعلم الطبيعى بالتحديد ومن أكثرها اكتمالا • وأضاف الى ذلك نقده للتيارات المضادة الميتافيزيقية ، ومن بينها منهج الفهم Verstehen الذى عـــارض قيام عـــلم اجتماع ماركسى امبيريقى ، ثم وضع معالم السمات الاساسية لما أسماه عــلم اجتماع الاساس المادى ، والذى تحدد فيه مهمة عـــالم الاجتماع على أنهـــا اكتشاف القوانين ••• ذات الصلة بالاليات الاجتماعية بالغة التعقـــيد فى الفعل ، وعندئذ واذا كانت هذه القوانين ممكنة ، فانه ينبغى عليهـــا ان ترد الى قوانين العلاقات الاولية • ولقد قدمت الماركسية اطـــارا لازما لمثل هذا النوع من علم الاجتماع ، من خلال وصف البناء الــكلى لحقبة وتكوين تاريخى فضلا عن قوانين محددة تتوقف على الموقف والزمان •

---

(٢١) ترجمة للانجليزية باكارين تحت عنوان :
Historical Materialism:
Asystem of sociology (New york : International publishers, 1925).

(٢٢) ترجمة للانجليزية اوتو نوراث تحت عنوان
Empiricism and Sociology, ed.
Marie Neurath and Robert S. Cohen (Dordrecht: Reidel, 1973) pp. 319 - 421.

وكانت الدراسة الهامة الاخرى لعلم الاجتماع الماركسى متمثـــلة فى الكتاب الذى أسهم به كارل كورش Karl Korsch ضمن سلسلة علماء الاجتماع المحدثين[٢٣] ولكن سيكون من المناسب التعرض لهذا الموضوع فيما بعد ، فى سياق تطور فكر كورش من التصور الفلسفى للماركسية الى التصور الاكثر سوسيولوجية •

ولقد اضطلعت مدرسة اخرى فى علم الاجتماع بمهمة اجراء بحوث سوسيولوجية وتناول موضوعات كان قد شرع فى تناولها أساسا فى قرن ماضى ولم تتم متابعتها بطريقة منسقة ، وهى تشكل أعمال الكل الـــذى كان ينبغى على علم الاجتماع الماركسى أن ينشغل به ، وظهرت هـــذه المدرسة فى فترة التوسع السريع فى الدراسات السوسيولوجية بعـــد الحرب العالمية الثانية ، وظلت الماركسية هى المدافع الخفى أو فى الظل فى كثير من الكتابات عن التدرج الاجتماعى أو عن التغير الاجتمـاعى والصراع ، وكان لها تأثيرا مباشرا فى دراسات مثل تلك التى ذكرناها فعلا ، والتى أجراها أوسوسكى Ossowski ودهراندروف Dahrendorf حول البناء الطبقى ، وفى تحليل الطبقات والصفوات الذى قدمه رايت ميلز Wright Mills وغيرهم ، وفى النظرية السوسيولوجية الذى قدمه جورج جورفيتش G. Gurvitch والى حد ما فى تحليل تطــور القانون مثل كتابات فريدمان Friedman ، عن القانون والمجتمـع المتغير[٢٤] الذى قد ينظر اليه على أنه استمرار لمؤلف رينر •

---

(٢٣) انظر ، كتاب كارل كورش بعنوان

Karl Marx (London: Chapman & Hall, 1938).

كطبعة منقحه للاصل الالمانى ، الذى كتبه جوتز لانجو ، ونشر تحت عنوان

Karl Marx (Frankfort: Europaische verlagsanstalt, 1967).

(٢٤) انظر كتاب فريدمان بعنوان :

Law and a changing society, (London: sterens, 1959).

ولم تظهــر أكثر أشــكال علم الاجتمــاع الماركسى تميزا ، الا فى السنوات القليلة الاخــيرة مع احياء الحــوار حول المجتمع الصنــاعى والرأسمالية الجديدة ، وذلك مثل الدراسات الجديدة حول الامبريالية فى علاقاتها بما أطلق عليه اسم «البلاد النامية» والاهتمام الذى أثــير نتيجة لاحياء الحركات السياسية الراديكالية •

وهناك عــدد من الاسباب وراء فشل قيام عــلم اجتماع ماركس شامل • وأول وأعم هذه الاسباب يتمثل فى القول بأن النظرية الماركسية ذاتها ونعنى ، تلك السائدة فى التراث ، وبخاصة فى النظم التعــليمية هى من بنات أفكار الطبقة الحاكمة•وتحتاج هذه الظاهرة ــ المحافظةعلى المجتمع الرأسمالى من خلال اعادة انتاج الثقافة البورجوازية ــ تحتاج الى بحث مفصل[٢٥] • ولكن يوجد هناك الكثير من الشواهد ، على الاقل على العقبات التى قد وضعت فى طريق العلم الاجتماعى الماركسى فى جامعات الكثير من الدول الغربية • ومن بين التأثيرات الهامة على وجــه الخصوص ، من هذا النوع ، يمكن أن نشير الى ظهور النظــام النازى فى المانيا ، الذى انهى وجود كلا من الماركسية وعــلم الاجتماع فى المجتمع ، حيث كانت الظروف الفكرية مواءمة بشكل استثنائى لنمو علم الاجتماع الماركسى •

---

(٢٥) الكتابات الحديثة لبيير بورديو قدمت اسهاما هاما فى هذا المجال من الدراسة ولكن هنــاك ايضا نتائج واسعة عن الدرجــة التى تستطيع ثقــافة المجتمعات الغربية فى الوقت الحاضر ان تكون موصــوفة « كالبرجوازية » • وهناك بعض التأملات الشيقة عن هذا التساؤل فى كتــاب نورمان بيرنبينوم بعنــوان

The Crisis of Industrial Society (New york: Oxford university press, 1969).

الا ان هـذا السبب بمفـرده لا يبدو كافيـا فى نظـرى لتفسـير هذا الفشـل ، وكان التأثيـر الرئيسى الاخـر متمثلا فـى وجـود الاورثوذوكسية الماركسـية القوية التى ادعت بانها عـلم اجتمـاعى ، ولكنها لم تزد عن مجرد دوجما سياسية فى الاتحاد السوفيتى، وفى كل ارجاء الحركة الشيوعية الدولية ، وهـذا المذهب الرسمى قد اوقف لسنوات عديدة كل فكر جاد أو بحث . وفى النهاية ، علينا ان نفسر هذه الحركات الفكرية فى اوربا الغربيـة ، وبخاصةً فى المانيـا ، التى ادت بالمفـكرين الماركسيين الى الاتجـاه بعيدا عن افكار الماركسـية كعلم اجتمـاعى ، والاهتمام باعادة اثبات عناصره الفلسفية والهيجلية .

الفصل الثالث

الماركسية ورفض علم الاجتمـاع

الماركسية ورفض علم الاجتمــاع

لقد تأثر رد الفعل المعارض لتصور الماركسية باعتبارها علما وضعيا بمجموعة من التيــارات الفكرية فضــلا عن تأثره بعدد من الظـروف السياسية • وكما لاحظ[1] • ستيوارت هيوجيه Hughes • ولقـــد نشبت الثورة ضد الوضعية فعلا وبشدة خــلال عقد من عــام ١٨٩٠ ؛ وطالما امتد تأثيرها ليشمل الفكر الماركسى • ولقد ادرك كروس Croce حتى خلال الفترة القصيرة من اهتمامه بالماركسية ، ادرك ان الماركسية كمنهج فى التفسير التاريخى ؛ قد ارتبطت بشدة بفلسفة هيجل ، اكثر من كونها علما اجتماعيا عاما •• وعرض سورل Sorel ، بعـــد أن اتخــذ جــانب برنشتين فى نقــاش المراجعــين[2] ، عرض فيما بعــد الماركسية على أنها نظرية تتعلق بالتنظيم النقابى الثــورى «٣» • ولكن كان هناك دائما شيئا من الاتساق فى وجهة نظره • فهــو لــم يمتدح فى كتابات برنشتين جهده فى ملاحظة ووصف العــالم الواقعى فقط ، وانما امتدح أيضا اتجاهه النشط ، ودعوته لان يلعب الاشتراكيون دورا فعالا فى العــالم ، وتأكيــده على العنصر الاخــلاقى فى الاشــتراكية

---

(١) انظر ، كتاب ستيوارت هيوجيه بعنوان :

Consciousness and Society (London: Macgibbon & Kee, 1959).

وخاصة الفصل الثانى •

(٢) انظر جورج ســوريل

Les polemiques pour Lnterpretation du
Marxisme, Revue internationale de Siciologie (Poris, 1900).

(٣) انظر ، خصوصا

Reflexions sur Le violence (paris: Marcel Riviere, 1908).

قبـــل كل شيء ، ذلك لان «سورل» كان ينتقـــد دائما فكـــرة الضرورة باستخدام تعبير نيتشه Neitfiche قد احدثت «تحولا فى تقدير كل القيم» وانها واجهت العالم البورجوازى باعتباره خصما لا يمكن المصالحة معه يتهدده الكوارث الاخلاقية أكثر مما تنتظره الكوارث المادية(٤) .

وهذا التأكيد على الجـــانب الثورى والممارســـة فى فكر ماركس قد ميز استجابة لينين للنزعة المراجعة ، ولمجمل الميل العلمى والتطورى فى الماركسية الالمانية ، وكانت نزعة لينين النشطة سياسية ومعنية مباشرة بتغيير العالم ، وليس باعادة تفسيره بأى طريقة جادة ســـواء العالم أو الماركسية .

وأصبح تصور الماركسية باعتبارها فلسفة نقدية أو فلسفة عمـــلية فى النهاية هو التصور الغالب بين جيل المفكرين الماركسيين بعد الحرب ، واخذ التعبير عنه أشكالا مختـــــلفة لدى كورش Korsch ولوكاش Lukacs وجـــرامسى Gramsci وفلاسفة معهد فرانكفورت للبحث الاجتماعى (بخاصة هوركهيمر وماركيوز Horkheimer & Marcuse) وبغض النظر عن نتائج المؤثرات الفكرية عليهم ـــ فلقد ظهرت المـــذاهب المتباينة والمعارضة للوضعية عن تصور دلثى Dilthy «لعلم الروح» الـــــذى يعتمـــــد على فهم تفســـــيرى للتـــــاريخ hermeneutic وعن الفينومينولوجيا، وعن فلسفة ليبنز Lebens ، وفى ايطاليا عن الفلسفة المثالية للتاريخ لدى كروسيه Croce وجينتيل Gentile ـــ كمـــا قـــد تأثروا أيضا وبشدة بالاحداث السياسية . وأوضحت الثورة الروســـية

---

(٤) مقدمة لسافيريو ميرلينو بعنوان
Formes et essence du Socialisme (Paris, 1898).
11. G. G. Seip, Electrical Installions Handbook, Siemens AG,

كيف أن حزبا سياسيا صغـــيرا مسلحا بالمذهب الماركسى ، بامكانه أن يتدخل بفعالية ويغير مجرى الاحداث ، بينما علمنا فشل الطبقة العاملة فى أوربا الغربية عن أن تنمى نظـــرة ثورية سواء فى الفترة التى تلت الحرب مباشرة أو فى عام ١٩٣٠ ، علمنا درسا مماثلا ، ونعنى بـــذلك انه ينبغى ان يجلب الوعى الثورى المتجسد فى التفسير النشط للماركسية الى الطبقـــة العـــاملة من الخـــارج • ويبـــدو أن نمـــو الحـــركات النازية والفاشستية ، وفشل الطبقة العاملة فى مقاومتها ، يبدو انه يؤيد وجهة النظر التى مؤداها انه من الخطأ والخطورة أن نتصور التطـــور التلقـــائى بين الطبقـــة العـــاملة ، واحتمـــالا بين بعض أقســـام الطبقة الوسطى (كما زعم برنشتين) ، أو التحول الذى لا مفر منه الى الاشتراكية • وفى نفس الوقت لقد طرح نجاح هذه الحركات مشكلات جديدة ، شرع فى دراستها عـــام ١٩٣٠ بمعرفة بعض الزملاء فى معهـــد فرانكفورت،وأدى الى جوانب أخرى من عدم الالتقاء فى تقييم النظرية الاجتماعية الماركسية •

ولقد تركت ماركسية لوكاش Lukacs ، كما تم صياغتها فىمقالات جمعت فى مؤلفه التاريخ والوعى الطبقى ، وكما استمرت توجه تفكيره برغم تخليه عن موضوعات معينة[٥] ، تركت كثيرا من هذه التـــأثيرات وكانت قد بنيت على فكرتين اثنتين اساسيتين ، تتمثل الاولى فى القول بأن أية حقيقة تتعلق بالتـــاريخ يمكن الكشف عنها بواسطة الاستبصار

---

(٥) وفى اواخر حياته جعل لوكاش هذه المسألة اساس كل تفسيره للنظرية الماركسية وذلك فى مقدمة الطبعة الجديدة من كتابه التـــاريخ والوعى الطبقى عام ١٩٦٧ عندما لاحظ بالنقد الذاتى الطابع الثورى معبرا عنه فى هذه المقالات واشار الى شكه فى المحتوى الاساسى والصلاحية المنهجية للماركسية كما كان قد عرضها هو •

المعقول بالعمليات التاريخية ، وليس بواسطة البحوث الامبيريقية والسوسيولوجية.ولقد أحسن التعبير عن هذه المقابلة بين علم الاجتماع والماركسية (متميزة بمنهجها الديالكتيكى) فى العرض النقدى الذى قدمه لوكاش لمؤلف بوخارين Bukharin ، حيث يشير الى منهجية بوخارين الزائفة والى تصوره للماركسية باعتبارها علما عاما واستمر يقول :

انه لا يمكن لعلم الاجتماع أن يقتصر على منهج مجرد ، كنتيجة ضرورية لمدخله العلمى والطبيعى ، وانما نمى فى صورة علم مستقل له أهدافه الخاصة . وبامكان المنهج الجدلى أن يحقق ذلك بدون مثل هذه الانجازات الاساسية المستقلة ، والتى يتمثل نطاق اهتمامه فى العملية التاريخية ككل ، التى تكشف لحظاتها moments الفردية والواقعية والتى لا يمكن تكرارها عن جوهره الديالكتيكى بدقة فى الاختلافات الكيفية بينها وفى التحول المستمر فى بنائها الموضوعى . اذ تعد الحقيقة الشاملة totality بمثابة نطاق اهتمام territory الجدل[6] .

ونتمثل الفكرة الاساسية الثانية فى انه فى حقبة الرأسمالية قد تحقق استبصارا حقيقيا وكافيا بالعملية التاريخية فقط بواسطة مفهوم البروليتاريا ، ونتيجة لوضعها فى المجتمع ، ولقد تم صياغة هذا الاستبصار على أساس رشيد ومنسق فى النظرية الماركسية ، والتى يمكن لذلك النظر اليها على انها تماثل الوعى الطبقى للبروليتاريا — ولكن لما كان الوعى الفعلى للعمال — الذى يأخذ أشكالا أو صورا متباينة ، ليس ثوريا فى الغالب ، ولا يجسد النظرة الماركسية للتاريخ ، اللهم الا

---

(٦) نشرت الترجمة الانجليزية عام ١٩٢٥ تحت عنوان
Technology & Social Relations, Newleft Review, (1966).

فى مجموعة قليلة من الحالات ، كان على لوكاش أن يضع تمييزا بين هذا الوعى السيكولوجى الفعلى والوعى الرشيد المشار اليه ، والـــذى يمكن أن يتفق والنظرية الماركسية • وتمثل عملية التنسيب imputation هذه أحد وأجبات المفكرين الماركسيين ومن ثم تعد الماركسية ، بعد كل شىء ، تفسيرا خاصا للتاريخ•واذا كان لها أن تتفوق على غيرها فلا يجب آن يتم الدفاع عنها دوجماطيقيا على أسس يمكن ادراكها من وجهة نظر الطبقه العاملة ، وانما ينبغى أن يبحث عن تأكيد لصدقها بطريقة رشيدة أو امبيريقية على خـلاف التفسيرات الاخرى • وتعـــلق على مسألة العلاقة ما بين النظرية الماركسية للطبقة العاملة فى المجتمع الرأسمـــالى والتطور الامبيريقى الفعلى لتنظيمات الطبقة العاملة والوعى السياسى للطبقة العاملة أهمية حاسمة ، كما رأينا ، وذلك فى المناقشات التىدارت فى القرن العشرين حـــول الماركسية ، تلك المســـألة التى لم يتعرض لهـــا لوكاش أبدا(٧) •

وكانت نظرة جرامسى للماركسية ولعلاقتها بعلم الاجتماع ، مماثلة فى كثير من جوانبها لنظرة لوكاش ، تلك التى ظهرت مرة ثانية فىواحد من أوضح صياغتها فى المقال النقدى حول كتاب بوخارين :

ما الذى يعنيه القول بأن فلسفة الممارسة تعد بمثابة علم اجتماع ؟ وأى نوع من الاشياء يمكن أن يكون عليه علم الاجتماع هذا ؟ هل هـــو علم للسياسة والوصف التاريخى ؟ أو تجمـــيع منسق لمجمــــوعة من

---

(٧) لقد ناقشت المشاكل التى طرحها لوكاش فى تفسيره للوعى الطبقى على نحو مكتمل فى أحد المقالات بعنوان « البناء الطبقى والوعى الاجتماعى » فى الطبعة الجديدة من كتابى : توم بوتومور فى الفصل السابع •
Sociology as Social Criticism (London: Allen & unwin, 1974).

الملاحظات الامبيريقية فى صورة منظمة خاصة الخالصة والمتعلقة بفن السياسة والقوانين الخارجية للبحث التاريخى ؟ ألم يكن علم الاجتماع محاولة للتوصل الى ما يعرف باسم علم مضبوط للحقائق الاجتماعية بمعنى علم للسياسة والتاريخ ــ أو بعبارة أخرى فلسفة فى حالتها الجنينية ؟ ألم يحاول علم الاجتماع أن يقدم شيئا ما يماثل ما تقدمه فلسفة الممارسة ؟ لقد كان علم الإجتماع محاولة لابتكار منهج لعلم سياسى وتاريخى فى صورة معتمدة على نسق فلسفى سبق بلورته،ذلك الذى يرتبط بالتطورية والوضعية ، والذى كان علم الاجتماع قد استجاب له ، ولكن على نحو جزئى •

ولهذا فهو يعد محاولة لاستخلاص قوانين تطور المجتمع الانسانى تجريبيا بتلك الطريقة التى يتم بها التنبؤ بأن شجرة خشب البلوط ستنمو عن بذرة البلوط • ولهذا فان التطورية الشائعة تضرب بجذورها فى علم الاجتماع ، ولا يمكن لعلم الاجتماع أن يعرف المبدأ الجدلى فى انتقاله من الكم الى الكيف • وهذا التحول يعلق أى صورة للتطور وأى قانون للامتثال تم فهمه بالمعنى التطورى الشائع(٨) •

والواقع أن جرامشى Gramsci ، على أية حال ، لم يبلور هذه الفكرة المتعلقة بالمبدأ أو المنهج الجدلى ، ولم يوضح قيمتها فى أى بحث يؤكد لتتابع معين للاحداث ، ولم يقدم أى تدليل جوهرى لتفسير أو

---

(٨) « ملاحظات نقدية على اسهام فى علم الاجتماع الشائع » فى كتاب كيونتين هواروحيوفرى نويل سميث بعنوان
Selections from the prison Notebooks
of Autonio Gramsci (london: Lawrence & wishart, 1971) pp. 419 - 472 .
خصوصا فى صفحة : ٤٢٦ •

تأويل قدمه علم الاجتماع الحديث بمثل هذه الطريقة التى تظهر بوضوح حدودها وعيوبها المفترضة[٩] • وما أقدم عليه كان عبارة عن صياغة لنقد أكثر عمومية للنتيجة التى مؤداها أن علم الاجتماع لم يقدم أى قوانين أصيلة (التى تعتبر بمثابة ملاحظة تافهة نجدها فى كل مناقشة نقــــدية لعلم الاجتماع الوضعى) ، وأن يرسم معــالم ، مسألة العلاقة بين ــ المعــرفة والمجتمع فى صــورة محددة (التى كانت قد أصبحت أيضــا مسألة شائعة فى المناقشات التى دارت فى علم الاجتماع) ، بأن يقال ، انه ، مع اتساع نطاق الاحزاب الجماهيرية واندماجها عضويا فى حياة الجماهير ذاتها ، (الاقتصادية والانتاجية) توقفت العملية التى كــانت تجعل الشعور الشعبى اليا واتفاقيا (الذى ينتج بتأثير العوامل البيئيــة وما شابهها) ويصبح شعوريا اراديا ونقديا[١٠] •

وكان الهدف الرئيسى لجرامشى أن يعرف الماركسية على أنها نظرة فلسفية للعــــالم • ويذهب الى أن المفهــــوم الاساسى للمــاركسية الاورثوذكسية يتمثل فى القول بأن فلسفة الممارسة كافية فى ذاتها ، طالما انهــا تنطــوى على كل العنــاصر الاســاسية التى يحتــاجها بنــاء التصور الشامل والمتكامل للعالم ، فلسفة شاملة ونظرية للعلم الطبيعى، وليس هذا فقط ، وانما كل شىء يحتاجه اضفاء تنظيم عملى متكامل على

---

(٩) ولهذا التعليق نتيجة أعم ، فهو تعليق مضحك وفضولى ويميز الكثير من النقد المــاركسى الهيجيلى لعلم الاجتماع فى انه يتركز على الظروف بيــن نظرية ماركس والفلســفة الوضعية عند كومت (التى لعبت دورا ضئيلا فــى التطور اللاحق لعلم الاجتماع) بينما يتجاهل كل الجهود الرئيسية ــ فى علم الاجتماع الحديث وكان هذا هو الحال ، كما سوف نرى ، فى الكتابات الاولى لكروش وبخاصة فى مؤلف ماركيوز •

(١٠) Selections from the Prison Notebooks, P. 429.

حياة المجتمع ، بمعنى ، ما يجعله يصبح حضــارة متكاملة وشاملة[١١] .
وقبل أن نأخذ فى الاعتبار كلية وفى مرحــــلة لاحقة الانتقادات التى قد ظهرت ازاء هذه الافكار ، والتى ابتعدت كثيرا عن ما كان فكر ماركس الخاص يقصد اليه (وربما كان بهــــذا المعنى تماما قــد أعلن أنه ليس ماركسيا) فقد يكون من المفيد أن نقدم تعليقا عــــاما واحدا . انه لمن الامور المشكوك فيها كثيرا الان عنه فى الوقت الذى كان جرامسى قد أوضح فيه ما اذا كانت الماركسية قادرة فعلا على انجاز هذه المهمة الضخمة وتوفير العناصر الثقافية والفكرية لحضارة جديدة . ويبدو انه فى البلاد الاشتراكية التى تعــد فيها الماركسية هى الايديولوجية الرسمية ، انها تكون مقبولة باذعان وتذمر أكثر منه بتحمس يحفز اليه نظرة اخــلاقية جديدة ، ويبدو أن الحيـــاة الاجتماعية العملية موجهـــة بالكثير من القيم نفسها (التى تتركز على الظروف المادية للحياة وأوجه نشـــاط العمــل والفراغ) كما تسود فى المجتمعات الغربية . وعلى الجانب الاخــر ، قد أظهرت الماركسية الى الوجود فى كثير من البلاد الاشتراكية ، ســـواء بالمصادفة أم لا ، ظروف الظلم السياسى والتدهور الثقافى ، الذى يمثل فى أعين كثير من المراقبين ، تدهورا ملحوظا عن مستوى الحضـــــارة التى تم التوصل اليها من قبل . ومن ثم يبدو من المعقول جدا القول أن الاشتراكية فى أشكالها المتباينة ، وليس الماركسية كفلسفة شـــاملة هى التى قد حملت فى طياتها ، حتى الان ، عناصر حضارة جديدة .

وبالرغم من أن جرامشى قد اراد أن يميـــز بحدة بين الماركســـية كنظره للعالم وعلم الاجتماع كعلم اجتماعى فانه لم ينكر كل قيمه على

---

(١١) Ibid. P. 462.

الاخير كنوع من التأليف الامبيريقى بين مجموعة من الملاحظات الخاصة فى صورة احصائيات ، والتى يمكن أن توفر — على سبيل المثال ، اساسا للتخطيط[12] . وفى كتابات كورش Korsch ، التى بدأ فيها أيضا يعرض الماركسية فى صورة فلسفية — وباسلوب مماثل تماما لاسلوب لوكاش[13] — بالقول بان الماركسية كفلسفة مادية كانت بمثابة التعبير النظرى عن البروليتاريا الثورية ، تماما كما كانت الفلسفة المثالية الالمانية تعبيرا نظريا عن البورجوازية الثورية[14] اكتسب علم الاجتماع ، فى كتابات كورش ، وكذلك العناصر السوسيولوجية فى الماركسية تدريجيا شهرة كبيرة . وعندما اضطلع كورش فى مقال له نشر عام ١٩٣٧[15] بمهمة فحص العلاقة ما بين الماركسية وعملية

---

(١٢) ولقد نمى علم الاجتماع اساسا بهذه الصورة ، فى البلاد الاشتراكية باعتباره مجموعة من معطيات المسح .

ترجم كارل كورش هذا الكتاب الى الانجليزية تحت عنوان

Marxism and Philosophy London; New left Books, 1970

(١٣) ولقد اشار كورش فى الهامش الى كتاب لوكاش التاريخ والوعى الطبقى، الذى كان من ظهر بالتحديد فى اللحظة التى دفع بها كتابه الى المطبعة، وتحدث عن موافقته الجوهرية على موضوعاته ، ولكنه فى مقال أخير نشر كمقدمة للطبعة الثانية من كتابه (١٩٣٠) أكد على اختلافه عن لوكاش ، وان كان ذلك بدون مناقشة الى حد كانت اختلافاتهم السياسية مرتبطة باختلافاتهم النظرية .

(١٤) أنظر : Marxism and Philosophy, P. 42.

(١٥) «المبادىء الاساسية للماركسية » : فى كتاب باسم .

A Restatement, Marxist Quarterly, 1, 3 (October - December 1937)

واعيد طبعها مرة أخرى فى : كارل كروش بعنوان

Three Essays on Marxism (London : Pluto Press, 1917).

التدريس الحديثة لعلم الاجتماع ، ولكن بعد رفض مختصر لـــكومت ، وميز طابع علم الاجتماع فى القرون التاسع عشر والعشرين والـــذى انشأه كومت ودعمه ميلز وسبنسر كرد فعل معارض للاشتراكيةالحديثة نجده من النادر أن يذكر أى دراسة حديثة فى علم الاجتماع • وكان كل ما فعله عبارة عن صياغة أربع مبادىء أساسية للماركسية كعلم اجتماعى حقيقى لعصرنا ، وكوسيلة عملية لنضال الطبقة العاملة :

١ ــ مبدأ التخصيص أو الخصوصية التاريخية ــ يفهم ماركس كل الظواهر الاجتماعية فى ضوء حقبة تاريخية محددة ؟

٢ ــ مبدأ التطبيق العملى ، يبدو أن هـــذا يشير الى الاســاس الامبيريقى للنقــد الماركسى للاسرة البورجوازية ، وعـــلاقات الملكية وهـــكذا •

٣ ــ مبدأ التغير الثورى ــ فى مقابل النظريات التطورية •

٤ ــ مبدأ الممارسة الثورية ــ المحــاولة من خلال التحليل والنقد للكشف عن الاتجاهات الاساسية لتطور اجتماعى مقبل وجعل الاندمــاج الواعى والرشيد فى العملية التاريخية أمرا ممكنا •

ولقد بلور كــــروش فى مؤلفه الاساسى (كارل ماركس) هـــذه المبادىء وأشار بصراحة أكبر الى الوجهة الجديدة التى قــد اتخــذتها أفكاره ، متجها بعيدا فى الغــالب عن الاهتمامات الفلســفية للســنوات الخمســة عشر الســابقة •

لقد كان المبدأ النقدى الذى تحقق منه ماركس امبيريقيا ، فى التطور اللاحق للماركسية، قد تم بلورته فى صورة فلسفة اجتماعية عامة .. ولم تتم الا خطـــوة واحدة ، عن هذا التحـــريف للمعنى النقـــدى والامبيريقى للمبدأ المادى ، وصولا الى الفكرة التى مؤداها انه ينبغى أن يبنى العلم الاقتصادى والتاريخى عند ماركس على اساس أرحب وليس فقط على أساس فلسفة اجتماعية ، ولا حتى فلسفة مادية شاملة تجمع بين كل من الطبيعة والمجتمع ، أو تفسير فلسفى عام للعالم[١٦] .

وفى الفصل الاخير قام بتلخيص وجهة نظره هكذا :

لم يعد الاتجاه الاساسى للمادية التاريخية اتجاها فلسفيا ، وانمـــا هو اتجاه من نوع المنهج العلمى الامبيريقى . وهو يمدنا بنقطة انطلاق نحو الحل الواقعى لمسألة أن المادية الطبيعية والوضعية ، ظهرا فقـــط لتقديم هذا الحل ، وذلك بسبب اختيارها ادخـــال مناهج العلم الطبيعى الى ميدان العلم الاجتماعى[١٧] .

ويتمثل الجـــزء الاكثر أهمية وجـــوهرية فى الكتاب فى تأكيد كروش على تحليل كل الظواهر الاجتماعية فى علاقاتها بالاقتصاد وكـــذلك فى تصور الاقتصاد كظاهرة تاريخية ، شأن الاسهام الرئيسى لماركس فى العلوم الاجتماعية . وذهب كروش فى فقرة مخصصـــة لطبعة تالية من كتابه ، فى الواقع ، الى أن التمييز الاساسى بين علم الاجتماع والنظرية الاجتماعية الماركسية يمكن أن نجده متمثلا فى الحقيقة القائلة بأن عام

---

(١٦) انظـــر : Karl Marx, rev. German edn, P. 145.
(١٧) Ibid. P. 203.

الاجتماع يعالج نسق العلاقات الاجتماعية كمجال مستقل فى البحث ، بينما تتناول الماركسية هذا النسق من وجهة نظر التحليل المسبق للاقتصاد ، والى هذا الحد فان العلم المادى للمجتمع لدى ماركس لا يعد علم اجتماع ، وانما هو اقتصاد سياسى[١٨] • وظل هذا يمثل أحد القضايا الهامة فى كل نقد ماركسى لاحق لعلم الاجتماع • وعلى أية حال ، ينبغى ان نقول أن كروش قد وضع معالم نظرية ماركسية للمجتمع بطريقة بالغة التجريد ، ولم يهتم الا قليلا بالموضوعات الامبيريقية مثل التطور الفعلى للرأسمالية فى القرن العشرين والمشكلات التى ينبغى طرحها — والتى كان قد طرحها بيرنشتين والماركسيون النمساويون — والمتعلقة بالتغيرات فى البناء الاقتصادى أو فى النسق الطبقى • ولم يشر كروش ، فى الواقع ، بالمرة الى الماركسيين النمساويين ، أو أفكار برنشتين ، أو الى أى دراسات حديثة اقتصادية أو سوسيولوجية • وتعتبر الماركسية فى هذا العرض ، بمثابة المذهب الذى ميز أواسط القرن التاسع عشر ، والذى تحدد أساسا من خلال معارضته للاقتصاد السياسى عند ادم سميث وريكاردو •

ولقد تخلى كروش فيما بعد عن الماركسية برغم انه لم يخضعها لنقد منسق[١٩] • وبدأ على أن يعود الى النظرة الفلسفية للمجتمع ، وبخاصة تلك النظرة التى لها طابعا ذاتيا وشخصيا أكثر • وفى المذكرات

---

(١٨) Ibid. P. 277

(١٩) كان كورش اثناء سنواته الاخيرة يعمل على تجميع وجهات نظره عن النظرية الماركسية ، ولكن عاقه مرضه من تكملته • (انا مدين للسيدة هيدا كورش على معلوماتها) •

التى اعدت بغرض جولة لالقاء المحاضرات فى أوربا فى عام ١٩٥٠ والتى نسخت بالالة الكاتبة تحت عنوان «عشر موضوعات حـــول الماركسية اليوم »[٢٠] ، أكد قائلا ، ليس هناك معنى لطرح السؤال الى أى حـــد لا تزال نظرية ماركس وانجلز صادقة من الناحية النظرية وقادرة عـلى التطبيق العملى ، وتعتبر كل المحاولات التى قامت من أجل اعادة بنــاء النظرية الماركسية ككل وفى وظيفتها الاصلية كنظـرية للثورة الاجتماعية للطبقة العاملة ، تعتبر الان بمثابة صور يوتوبية رجعية • ولكنه بعدئذ استمر يبلور ما اعتبره بمثابة المحاولة الاولى فى اعادة بنــاء النظـرية الثورية والممارسة • ولم تعد هذه الرغبـــة فى التوصل الى نظرية ثورية جديدة ونشاط سياسى ، على أية حال ، متجسدة فى اطار الافكار الذى يمدنا بنظـرية منسقة للمجتمع أو وجهـــة نظـر فلسفية شاملة للعالم (كما فعلت الماركسية) ، ويبدو انها تنشـــأ ببساطة عن حكم فلسفى أو أخلاقى فردى (وفى قلب المعنى عند هيجل) وعن دراسة ذاتية خالصـــة للتاريخ الانسانى •

ويبدو من هذه الناحية أن التطور الاخـــــير فى فكر كروش موازيا تماما وليس بعيدا عن فكر بعض المفكرين ذو الصلة بمعهد فرانكفورت، كما ينطوى على نقاط إنطلاق مماثلة • ولقد شارك ، كورشيه ، فى الواقع «فى الاسبوع الاول للاعمال الماركسية » الذى نظم فى عــام ١٩٢٢ ، والذى تطور عنه معهد فرانكفورت • وكثير من النقاش فى هذا اللقــاء

---

(٢٠) نشرت فيما بعد فى فرنسا ، فى Arguments, 16 (1959) وفى المانيا فى Alternative, 41 (1965).

الاول قد كرس من أجل كتابه القادم عن الماركسية والفلسفة[٢١].وأمدنا هذا الكتاب مع كتـــاب لوكاش التاريخ والوعى الطبقى ، بالحـــافز الاساسى داخل الفكر الماركسى لتطوير الشـــكل الفلسفى الخــاص للماركسية ، وتمييزه من ناحية عن المذهب الميتافيزيقى الرسمى «للمادية الجدلية» أو اللينينية الماركسية ، ومن ناحية أخرى عن العلم الاجتماعى الوضـــعى (برغم أن عددا من أعضـــاء المعهد فى السنوات المبـــكرة قد احتفظوا بالمدخل الوضعى مثل جرونبرج Grunberg وهوايت فوجل Wittfogal وجروسمان Grossman). وكما لاحظ لتيشسيـــام Lichtheim ـــا نحن فيـــه لا يزيد عن اعـــادة اكتشـــاف الجـــوهر الحقيقى للماركسية باعتبارها احيـــاء للمذهب الفلسفى الـــذى يمكن أن نطلق عليه على نحو مناسب اسم الهيجلية[٢٢] .

ولقد رجع أكثر مفكرى معهد فرانكفورت تأثـــيرا ــ هوركهايمـــر وادورنو وماركيوز Horkheimer و Adorno و Marcuse الى اهتمامات صغار الهيجلين فى عام ١٨٤٠ ، وأكدوا فوق كل شىء أهمية

---

(٢١) انظر كتاب جاء بعنوان The Dialectical Imagination, P. 5. وبعـد السـنوات القليـلة الاولى ، قـل ارتبـاط كورش أو انعـدم باعمـال مدرسة فرانكفورت لانه كان اكثر انشغالا بالنشاط السياسى من غالبية اعضاء المدرسـة نوعا ما ، وبسبب اهتماماته النظـرية ، كما سنرى ، التى نقلته من الاهتمام الفلسفى الى التصور العلمى للماركسية اثناء عام ١٩٣٠ .

(٢٢) انظر كتاب جورج ليشزيم بعنوان
From Marx to Hegel (London - Orboch & Chambers)
عام ١٩٧١ ص ٢ . أول مقالة فى هذا المؤلف يقدم لنا تفسيرا ممتازا للظروف التى شجعت على نمو الهيجلية الماركسية أثنـاء عام ١٩٣٠ ، وبعد ذلك عام ١٩٤٥ عندما اعطيت تأثيرات الفلسـفة الهيجلية والفينومينولوجيا فرصـة جديدة للانتعاش فى الوجودية .

الجانب الذاتى فى النشاط،وارجعوا قدرا كبيرا من الاستقلال والاهمية للبناء الفوقى الثقافى ، وكرسوا جهودهم الاساسية فى بلورة نوع من «النقد النقدى» الذى كان ماركس قد سخر منه • وهناك بالطبع اختلافات هائلة أيضا بين الموقف فى عام ١٨٤٠ والموقف فى عام١٩٣٠ حيث ظهرت تيارات فكرية أخرى كثيرة ركزت على فلسفة هيجلوانشغلت بعملية نقد الوضعية ، وحدثت هناك تغيرات سياسية واقتصادية ضخمة بخاصة تطور النظام السياسى والاجتماعى فى الاتحاد السوفيتى ، وظهور الفاشية ــ والتى طرحت مشكلات جديدة أمام النظر النقدى •

ولكن هناك سمة واحدة بخاصة تربط بين فلاسفة فرانكفورتوصغار الهيجليين ، ونعنى غياب دور الطبقة العاملة • فلقد تجاوز ماركس فيما وراء صغار الهيجليين عندما صاغ فلسفة الممارسة ، وتصور النشاط العملى النقدى ، برغم أن اكتشافه للبروليتاريا كقوة مادية فى الحياة الاجتماعية الذى ارتبط فيه النشاط الثورى والنقد النظرى أو قد يصبح كذلك • وواجه مفكروا فرانكفورت موقفا ، توقفت فيه الطبقة العاملة كما اعتقدوا هم ذلك ، عن أن تكون ثورية ، ومن ثم أدى بهم ذلك بالرجوع الى ما يسبق الفكرة الماركسية عن النشاط الثورى باعتباره نتاجا لوعى نقدى ثورى • ولقد أصبح الاثر الكامل لوجهة النظر هذه واضحا فقط فى وقت حديث جدا ، وفى كتابات ماركيوز الاخيرة ، وفى أعمال صغار جيل المفكرين الذين ارتبطوا بمدرسة فرانكفورت قبل الحرب والذين سوف القى نظرة مختصرة عليهم •

فقد كان النقد الذى وجهه فلاسفة فرانكفورت الى علم الاجتماع غير مباشر اساسا ، وذلك من خلال نقدهم للوضعية ، بالرغم من أن

ماركيوز فى كتابه العقل والثورة قد رفض خاصة علم اجتماع كـومت فى ضوء عبارات كان بالامكان تطبيقها على نطاق أوسع •

كان على الدراسة الاجتماعية ان تكون بمثابة علم يبحث عن القوانين الاجتماعية ، وان يكون صدق هذه القوانين مشابه أو مناظر لصـــدق القوانين الطبيعية • وكان التطبيق الاجتماعى ، بخاصة ما تعلق بتغيير النظام الاجتماعى ، قد اختنق بهذه الطريقة المتصلبة • حيث كان ينظـر الى المجتمع باعتبار أن هناك قوانين رشيدة تحكمه وانها تتغيربالضرورة الطبيعية ••• وكان الرفض الوضعى للميتافيزيقيا مقترنا برفض ادعاء الانسان تغيير واعادة تنظيم نظمه الاجتماعية طبقا لارادته الرشيدة(٢٣) •

ولكن بينما كان النقد الفلسفى للوضعية هو السائد دائما ، الا انـه لم يشكل كل إعمال المعهد ، الذى كشف الكثير منه عن موضوعات جديدة كانت لها أهمية واضحة فى تطور النظرية الاجتماعية الماركسية•ويصدق هذا خاصة على محاولة ادماج علم النفس والتحليل النفسى داخل الاطار الماركسى ، والاستفادة من هذه النظم الفكرية فى تحليل ظاهرة الفاشية الجديدة والمزعجة •

وكانت الدراسات التى سارت عبر هذه الخطوط قد حفز اليها اريك فروم E. Fromm بدرجة كبيرة ، الذى كان قد ارتبط بالمعهد منـــذ عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٣٩ ، عندما انفصل عن المعهد أساسا بســبب

---

(٢٢) انظر كتاب هربرت ماركيوز بعنوان :

Reason and Revolution :

Hegel and the Rise of Social theory (New York : Oxford University Press, 1941,) PP. 343 - 344.

تناقض النزعة الراديكالية فى اهتماماته • وكان فروم قد نشر فى العدد الاول من مجلة المعهد The Zeitschrift fur Sozialforschung عام ١٩٣٢ ، مقالا حول منهج وهدف علم النفس الاجتماعى التحليلى[٢٤] التى ذهب فيها الى أن التحليل النفسى (وان يكن فى صورة معـــدلة أو منقدة) يمكن أن يثرى التصور الماركسى للطبيعة الانسانية ، ويساعـــد على مدنا بتفسير أكثر كفاية للعلاقة بين الاساس الاقتصادى للمجتمـــع والبناء الفوقى الايديولوجى • وفى الدراسة التى نشرها أخيرا ، حـــول تطور الشخصية فى المجتمع الحديث ، التسلطية وسيكولوجية النـــازية قد شرع فى الحـــاق فكرته المتعلقة بالطابع الاجتماعى وقـــام بتلخيص وجهة نظره هكذا :

تعتبر القـــــوة الاقتصـــــادية ذات فعالية ، ولكن ينبغى أن تفهم لا باعتبارها واقعية سيكولوجية وانما على انها ظروف موضوعية ، كمـــا أن القوة السيكولوجية ذات فعالية ، وانما ينبغى أن تفهم باعتبارها هى التى تحدد ذاتها من الناحية التاريخية ، وللافكار فعاليتها ، وانما ينبغى ان تفهم على أنها تضرب بجــــذورها فى كل البناء الشخصى لاعضـــاء الجماعة الاجتماعية وبعبارة أخــــرى ، تؤثر الظـــروف الاجتماعية فى الظواهر الايديولوجية من خلال وسيط هـــو الشخصية ، والشخصية من ناحية أخرى ، ليست بمثابة نتاج لتوافق سلبى مع الظروف الاجتماعية وانما لعملية توافق دينـــامى على أســـاس العناصر التى اما أن تكون

---

(٢٤) ترجمة للانجليزية اريش فروم تحت عنوان :
The Crisis of Psychoanalysis :
(New York : Holt, Rinehart & Winston, 1970)

موروثة بيولوجيا فى الطبيعة الانسانية أو قد أصبحت موروثة كنتيجـــة للتطور التاريخى[٢٥] .

وتنطوى أعمال فروم على توجيه امبيريقى ووضعى أكثر مما تنطوى عليه أعمال الكثير من أعضاء المعهد الاخرين ، وبخاصة ، فى الاعـــتراف بان القوى الاقتصادية والسيكولوجية والايديولوجية فى المجتمع ، بينما تعتبر معتمدة فيما بينها ، فهى تتمتع أيضًا بدرجة معينة من الاستقـــلال ولاحظ أن هذا يصدق خاصة على التطور الاقتصادى ، الذى باعتمـــاده على قوى موضوعية ، مثل قوى الانتاج الطبيعية ، والفن الانتـــاجى والعوامل الجغرافية ، الذى يحدث طبقا لقوانينها الخاصة[٢٦] .

وبطبيعة الحال ، أصبحت الاهتمامات العامة للمعهد ، فلسفية بشكل متزايد خاصة بعد العودة الى المانيا فى عام ١٩٤٩ ، وركز المدافعـــون عن النظرية النقدية لان اهتمامهم على نقد الثقافة الجماهيرية تلك التى نظـــروا اليها باعتبارها جـــوانب سلبية فى نزعـــة الترشيد والتنـــوير للسيطرة الفكرية للفكر التكنولوجى والعلمى ، ولقد دخلت هذه الافكار الى حد كبير فى النقد العام للوضعية ، التى أحيت المناقشات المنهجيـــة للقرن التاسع عشر بينما ادخلت بعض الموضوعات الجديدة ، بخاصة من نطاق فلسفة اللغة[٢٧] ، وفقدت تدريجيا أية علاقة مميزة لها بالنظـــرية

---

(٢٥) انظر «فورم» أيضا فى كتابه :
The Fear of Freedom (London :
Routledge & Kegan Paul, 1942) PP. 252 - 253.
(٢٦) Ibid. P. 253.
(٢٧) انظر ، كمثال ، بيتر ونيش
The Idea of a Social Science and its
Relation to Philosophy (London : Routledge & Kegan Paul, 1958).

الماركسية • وتعتبر هذه الحركة للفكر أكثر وضوحا فى كتابات ماركيوز وبعض من أولئك الذين قد ينظر اليهم على انهم الجيل الاخير فى مدرسة فرانكفورت — ونعنى هابرماس وويلمر Habermas and Wellmer — قبل حلها فى نهاية عام ١٩٦٠ •

وطرح ماركيوز فى كتابه الانسان ذو البعد الواحـــد[٢٨] موضوعا مضمونه انه فى البلاد المتقدمة صناعيا قد اسهم تقدم العلم والتكنولوجيا فى بناء شكلا للسيطرة ، ونسقا للضبط الاجتماعى ، من خـــلال تحقيق التكامل الثقافى والاجتماعى للطبقة العاملة فى المجتمع ، وقد تخلص من أى قوة حقيقية قادرة على احداث تغير تاريخى راديكالى وايجاد نـــوع جديد من المجتمع •

كانت النظرية النقدية للمجتمع (ونعنى الماركسية) فى وقت نشأتها تواجه وجود قوى حقيقية فى المجتمع القائم وقد تحركت (وبالامـــكان توجيه حركتها) تجاه نظم أكثر تحررا ورشدا من خلال ابطال أثر القوى الموجودة التى أصبحت عقبات فى طريق التقدم • وتوافرت هناك دعائم أمبيريقية قد استندت اليها النظرية فى بنائها ••

وبدون ظهور مثل هذه القوى ، قد يظـــل نقد المجتمع صـــادقا أو رشيدا ولكن قد يكون عاجزا عن ترجمة رشده الى عبارات الممارســـة التاريخيـــــة •

---

(٢٨) أنظر كتاب هربرت ماركيوز بعنوان :
One - Dimensional Man, Boston :
Beacon Press, 1964).

واستنتج ماركيوز أن النظرية النقدية للمجتمـــع لا تشتمل على مفاهيم يمكن أن تعبر بها الهوة بين الحاضر والمستقبل ، ولا تتمسك بأى وعد وتبدى أى نجاح ، وانما ظلت سلبية[٢٩] وان ما يكشف عنه هـــذا عبـــارة عن الالتزام القـــوى للمنظر النقدى خاصـــة بالتفسير الذاتى والمتعسف للتاريخ الذى لم يعد يرتبط لابالدركة الاجتماعية ولابمجموعة المعارف التى يمكن التوصل اليها علانية ومعايير الصدق التى يمـــكن بها الحكم على مزاعمها • ويمثل هذا أيضا تخليا نهائيا عن أى شىء يمـــكن أن يعرف باسم النظرية الماركسية لانها حذفت عنصرين اثنين ضروريين فى الفكر الماركسى ، تصور أهمية وجوهرية وتقدمية تطـــور النظـــام الاقتصادى ، وبخاصة الاقتصاد الرأسمالى ، والفكرة المتعلقة بالطبقـــة العاملة كقوة ثورية ، العامل التاريخى الفريد،وحامل الحضارة الجديدة• ويفصل كلا من هابرماس وويلمر نفسهما بطريقة مماثلة عن الماركســـية من خلال تأكيدهم أن أهميـــة الطبقات الاجتماعية قد قلت أو أصبحت مهملة فى المجتمعـــات الرأسمالية فى الوقت الحـــاضر[٣٠] ، ومن خـــلال تأكيدهم على البنـــاء الفوقى الثقـــافى أكثر من اهتمـــامهما بالاســـاس الاقتصادى باعتباره الميدان الذى ينبغى أن تنجز فيه التغيرات الجذرية وربما معظمها بواســـطة نقدهم المتطـــرف لما يروه ، على انه جـــوانب وضعيفة فى نظرية ماركس الخاصـــة التى فى رأيهم يمـــكن التشكك فى صدقها كطريقة فى دراسة المجتمع الانسانى •

وبالامكان أن نميز سمتين عامتين اثنتين فى تطور الماركسيةالفلسفية

---

(٢٩) Ibid. PP. 254 - 255

(٣٠) واستنتج ويلمر فى كتابه Critical Theory of Society صفحة ١٣٨ أن تصور ماركس عن الطبقات قد فقد فائدته كأداة للتحليل •

فى معارضتها لعلم الاجتمـــاع . الاول ــ وهو الاكثر وضوحــا فى الاسهام الاخير لمدرسة فرانكفورت ويتمثل فى العودة الى اطـــار الفكر الماركسى السابق ، بالمعنى الذى يجعله قريب من هيجل عنه الى ماركس وكما لاحظ لتيشيم ، وذا وجـدنا التفكير المعاصر يعيد انتاج اشكالية الموقف التاريخى القديم ــ ومعنى ذلك الذى نشـأت عنه الماركسية ــ فاننا نكون مخولين افتراض بانه قد حدث على هذا النحو لان العـلاقة بين النظرية والتطبيق قد إصبحت مرة أخـــرى من نوع المشكلة التى كانت أمام اتباع هيجل فى عام ١٨٤٠[٣١] .

وسوف أناقش مسألة النظرية والتطبيق فى كليتها فى الفصل التالى ولكن سيكون من المفيد عند هذه النقطة أن نجمــع معا بعض القضايا التى برزت عند المناقشات السابقة .

كان تطور الماركسية التى أخذت الطابع الهيجلى بمثابة استجابة الى حد كبير لكل مظاهر الشك فى الاســـاس النظرى للفعل الثورى فى الظروف السياسية التى ظهرت فى مجرى القــرن العشرين ، وانهيــار الديمقراطية الاجتماعية الالمانية والمجموعة الدولية الثانية مع نشــوب الحرب العالمية الاولى (التى أمكن تفسيرها كنتيجة مترتبة على النزعــة الاصلاحية ، والاخيرة بدورها كنتـــاج لنظرتهم التطورية والعــلمية للماركسية) ، والنجاح المتغاير للثورة الروسية خلال أفعال الطـــليعة الثورية ، والتدهور الواضح فى الالتزام الثورى للطبقة العـــاملة فى أوروبا الغربية ، ومن ناحية أخرى ، نمو حركات الجناح اليمينى النشط

---

(٣١) انظر G. Lichtheim, From Marx to Hegel (London : Orbach & Chambers, 1917) P. 14

والخدع الناتجة عن اندماج النظام الاستالينى فى الاتحـــاد السوفيتى (التى بررت نفسها باللجـــوء الى الماركسية باعتبارها نظرية علمية) ، وامتدادها الاخير لمجتمعات أخرى فى أوربا الشرقية ، ويمكن ان نقول على نحـــو أكثر عمومية ان الماركسية كنظـــرية حتمية تقريبا للتطـــور الاجتماعى قد كانت موضع لجوء ضخم بشكل واضح عندما ظهر أن اتجاه الاحداث فعلا يقود نحو الاشتراكية وأمكن القول بثقة أن التاريخ فى جانبنا . ولكن عندما كشف مجرى التاريخ عن جانب غير مطابق للغـــاية فى النظم الشمولية ، أما فى الفاشستية أو الستالينية،أو فى اقامة ماقد يبدو على انه نموذج ثابت لرأسمالية الرفاهية التى لاتأخـــذ بالمساواة بعد عام ١٩٤٥ واندفع أولئك المفكرون الذين ارادوا أن يحافظوا عـــلى الامل الثورى فى التحول من الرأسمالية الى الاشتراكية نحـــو تفسير مختلف للماركسية ، من النـــوع الذى أكد الجـــوانب الذاتية — الوعى الثورى والالتزام — فى النشاط العملى . وبالطبع ، يمكن لهذا التفسير أن يأخذ صورا أو أشكالا مختلفة ، ورأى كل من لوكاش وجـــرامسى وكورش فى أوائل عام ١٩٢٠ فى الوعى الثورى كما يجسد فى الحـــزب الشيوعى . بينما نظر فلاسفة فرانكفورت اليه على خلاف ذلك،باعتباره سمة للمفكرين الماركسيين — ولكن فى كلا هاتين الحالتين ، وفى غيرهما التى تبتعد عنهما فى هذا التفصيل أو ذاك ، ظهر نفس الادعاء يتمـــلك استبصارا متميزا بالدقيقة المتعلقة بالتاريخ والتى يمـــكن أن تكـــــون معارضة لاى تفسير سوسيولوجى امبيريقى فقط للاحداث التاريخيـــة فى كل شرورها المقلقة .

والسمة الثانية ، والغريبة جدا ، فى تطور الماركسية الفلسفية تتمثل فى انه بينما انها بدأت على أنها نقدا ماركسيا لعلم الاجتمـــاع فانها قد فصلت نفسها أكثر وأكثر عن بعض الافكار الاساسية (الاكثر تأثيرا) فى

نظرية ماركس ، وتحـــركت فى نفس الوقت أكثر لتقترب من التصورات والمناهج التى يمكن أن توجد فى بعض الاشكال الحديثة لعلم الاجتماع.

ووجدنا هنـــاك ، اندماج للماركســـية الفينومينولوجية مع عـــلم الاجتماع الفينومينولوجى ، ولكن فى عملية قد فقد فيها شيئا ما مميزا . ويعتبر الموضوع الاساسى للنقد الان ، وفى مجال الفكر ، هو الجوانب الوضعية فى العلوم الاجتماعية،وليست النظريات البورجوازية للمجتمع وفى مجال الحياة العلمية ، تركز النقد حول المجتمع التكنولوجى وليس الرأسمـــالية .

والواقع أن هذه الموضوعات التى يدور حولها النقد مرتبطة ببعضها، كما كانت ترتبط موضوعات الرأسمالية والفكر البورجوازى فى نظـــرية ماركس . (سبب اجرائى) هو أن الوضعية نظر اليها على أنها الشـــكل السائد للفكر الذى تسبب فى وجوده المجتمع التكنولوجى وهى بدورها تقوم بوظائف مثل التى تقوم بها الايديولوجية فى تدعيم والمحـــــافظة على نظم ذلك المجتمع . والشىء الذى لم يكن واضحا بالمرة ــ تمامـــا كما لم يكن واضحا فى حالة صغار الهيجليين ــ هو المعنى الدقيق الذى يمكن به النظر الى النظرية النقدية الماركسية التى ظهرت فيما بعـــد على انها ثورية أو راديكالية من الناحية السياسية . وحدث هناك فى عـــام ١٩٦٠ مصـــادفة كبيرة ، تتقابل مع راديكالية الحـــركة الطلابية ، ولكن كان الجهد الاساسى موجها نحـــو فهم العالم أكثر من تغييره . وما بدا على أنه مذهب نشط يبدو انه قد انتهى اخيرا الى نوع من التـــأمل التشاؤمى .

الفصل الرابع

النظـــرية والممـارسة

النظـــرية والممــارسة

تشغل مسألة الارتباط بين النظرية والممارسة مكانة مركزية في الفكر الماركسي ، وباستطاعتنا أن نكتشف أصولها في المناقشات التي دارت بين صغار الهيجليين خلال أربعينات القرن الثامن عشر ، وبخـــاصة في الكتاب الذي نشره أوجيست سيزكوفسكي A. Ciezkowski عام ١٨٣٨ بعنوان «مقدمة في فلسفة التاريخ» Prolegomena Zur Historiosophie [1] وذهـــب سيزكوفســـــكي الى أنـــه طـــالما أن الناس قد وصلوا الان ؛ من خلال فلسفة هيجل ؛ الى المعرفة المطلقة ، فان المرحلة التالية في تطورهم يمكن أن تكون هي فقط مرحلة تطبيـــق هذه المعرفة لتغيير العـــالم •

«••• لقد وصلت الفلسفة الى مرحلة كلاسيكية للغاية ، أصبح من الضروري معها أن تتخطى حدودها ، بحيث تترك هذا العالم الى عـــالم اخر ••• هو عالم الحياة الاجتماعية العملية ••• فمن الان فصـــاعدا ، سوف يصبح ما هو عملي بحت ، أي الفعل الاجتماعي والحياة في الدولة

---

(١) نوقشت آراء سيزكوفسكي بالتفصيل في :
Nicholas Lobkowicz, Theory and Practice (Notre Dame, New York : University of Notre Dame Press, 1967) chapter 13.

وباختصار شديد في :
David Mclellan, The Young Hegelians and Karl Marx (London : Macmillan, 1969).

وقد أمدنا كلا من المؤلفين بمعلومات عامة مفيدة عن الوسط الفكري لصغـــار الهيجليين •

هو المطلق ••• ان الوجود والفكر سوف يذوبان فى الفعل ، والفلسفة والفن فى الحياة الجتماعية ، وذلك كله من أجل عودة الارتباط الدائم فى الصورة المطلقة للحياة الاجتماعية »[٢] •

وأشار سيزوفسكى الى هذه الممارسة الاجتماعية الناتجة عن المعرفة المطلقة على أنها «ممارسة ، ما بعد النظـرية» أو التطبيق Praxis حيث يتحقق أعلى مستوى للتأليف بين الوجود والفكر ، ويرتكـز هـذا التصور على مركب من الافكار تدخل مباشرة فى نظرية ماركس[٣] ، وفى بعض التطورات اللاحقة التى شهدتها النظرية الماركسية• وهـكذا أقام سيزكوفسكى تفرقة بين الوقائع والافعال acts • أمـا الاولى فهـى تلك الاحداث التى يستطيع الوعى الانسانى أن يفسرها ويتناقلها،ولكن ليس بوسعه تحديدها ، وأما الاخيرة فهى تلك الاحداث التى نفكر فيها بداءة ثم نحملها شـعوريا • ولعل ذلك يربط بوضـوح بالتفرقة التى صاغها ماركس بين «ما قبـل التاريخ» ، حينما كانت تتحدد الحيـاة الاجتماعية للبشر بعوامل خارجية أساسا ، ثم المرحلة اللاحقة ، حينما يستطيع الناس أن يصنعوا تاريخهم الخاص عن قصد وبوعى ، من خلال السيطرة الرشيدة على الطبيعة ، وعلى طبيعتهم الخاصة •

---

(٢) Cieszkowski, Prolegomena, PP. 101, 112, cited by Lobkowicz, PP. 198 - 200.

(٣) لا يوجد دليل على أن ماركس قد تأثر مباشرة بكتاب سيزوفسكى ، ولكنه كان ملما بأفكاره الاساسية من خلال موزيس هيس Moses Hess • وعلى أية حال ، فقد نوقشت هذه الافكار باستفاضة فى عالم صغار الهيلجليين انظـر تعليقـات :

Lobkowicz, Theory and Practice, PP. 203 - 6.

ولكن يلاحظ على معالجة سيزكوفسكى لمشكلات الممارسةالاجتماعية ــ على نحو ما أشـــار لوبكو فيكز Lobkowicz ــ أنها غامضـــة ومجرده[٤] ، ومن ثم لا نجد سوى فى أعمال ماركس فقط كيف تكتسب أفكاره معنى تطبيقيا هائلا وأهمية سياسية.ولقد كان أكبر انجاز لماركس هو بناء نظرية اجتماعية ، على الرغم من أنها ذات طابع عالمى بوصفها اطارا لتحليل كل المجتمعات البشرية ، فانها على وجه الخصوص تمثـل نظرية للطبقة العاملة فى المجتمع الرأسمالى ، وهى فى ذات الـــوقت الذى فسرت فيه تطور الطبقة العاملة ، قدمت نظرة للمجتمع وللتـاريخ يستطيع وعى الطبقة العاملة أن يتمثلها ، وأن توجه ممارستها السياسية ومن ثم ، فان الطبقـة العاملة فى نظـرية ماركس ــ بوصفها جمـاعة اجتماعية حقيقية وتجمعا موضوعيا ــ تجسد وحدة النظرية والممارسة. لكن هذا المفهوم يمكن تأويله بطـرق مختلفة لابد من التمييز بينهـا . ففى رؤية لوكاش Lukacs للنظرية الماركسية.اتخذت الفكرة شكلا هيجليا فى تعريف البروليتاريا بوصفها موضوع العملية التاريخية،وهذا بدوره طرح من جديد مفهوم هيجل عن المعرفة المطلقة على أنها معـرفة الحق المطلق عن التاريخ[٥] . وهذه المعرفة المطلقة تقوم بدورها بوصفها موجها دقيقا وواضحا للنشاط التطبيقى (كما فكر سيزكوفسكى)وللمفكر الماركسى ــ سواء كفرد ، أو كما افترض لوكاتش دائما وهو مندمـج

---

(٤) Ibid., P. 202.

(٥) وقد أدرك لوكاتش نفسه ذلك مؤخرا جدا عندما أشار فى مقـدمته للطبعة الجديدة للكتاب : =

فى تجمع مثل الحزب الشيوعى ـ بحيث يصبح قـــادرا على تحـديد النظرة الصحيحة ، والنشاط السياسى للطبقة العـــاملة فى كل مرحلة تاريخية من مراحل تطورها • وبوسعنا أن نجد صورة مختلفة الى حـد ما لهذه الافكار تكشف عن الاســاس الذى اقيمت عليه نظرية ماركيوز Marcuse كما عبر عنها فى كتابه : «الانســان ذو البعد الواحد» ، اذ أن الباحث النقدى قادر على أن ينّصب نفسه قاضيا حول لا عقلانية المجتمع القائم ، والحكم النهائى على الحاجات الاصــيلة لكل البشر •

ومع ذلك ، ففى نظرية ماركس الخاصة ، لا تلعب فكرة المعـــرفة المطلقة هذه أية دور ؛ وهى تخضع لنقد حاد بوصفها تجريدا مطـلقا ، أى أنها نتاج لفكر مجـــرد يلزم نفسه بفهم المجتمع والتاريخ فهمـا حدسيا(٦) • واذا كان الامر كذلك،فاننا ننظر الى النظرية الماركسية على أنها قد تطورت لمعارضة هذا التصور المثالى المنهجى ، أى على أنها علم أمبيريقى للمجتمع يستند الى تحليل أساليب الانتاج المادية ، وعلينـا

= History and Class Consciousness (Neuwied : Luchterhand Verlag. 1967).

ان الاساس الفلسفى المطلق للكتاب هو وحدة الشىء والموضوع تلك الوحدة التى تتحقق فى العملية التاريخية (مفهوم الروح المطلقة عند هيجل) فتـلك محاولة لاخراج هيجل عن الفلسفة الهيجلية • وتلك صيغة تجاوز أى احتمال ممكن للواقـع •

(٦) In the Economic and Philosophical Manuscripts; See T. B. Bottomore (ed.), Karl Marx : Early Writtings (London: Watts, 1963) PP. 199-200, 216-17.

أيضا أن ندرك الى أى مدى تنطوى اعادة توجيه الفكرة هـــذه على علاقات متعددة بين النظرية والممارسة ، ذلك أن المعرفة العلمية بعيـدة عن أن تكون مطلقة ، أنها نسبية وقابلة للاصلاح ، وهى فقط بقدرمحدود يمكن النظر اليها على أنها تقدم أساسا مكينا لممارسة صحيحـة اذن ، فالتطبيق ينطوى على طابع مختلف ، انه لا يعنى بأية حـال الممارسـة الاجتماعية التى توجهنا اليها النظرية على هيئة نشاط وع وغير محـدد للافـراد والجماعات نابع عن فهم كلى لحقيقة العملية التاريخية ، ولكن الفعل مستندا الى معرفة جزئية ، قابلة للاصـلاح اكتسبت بواسطـة الدراسة الامبيريقية للبناء الاجتماعى والاحـداث التاريخية • وفى الوقت نفسه ، فان الممارسة ذاتها • أى التطور الواقعى للعـلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، يجب أن ينظر اليها عـلى أنها تمارس تأثيرا على النظرية ، اذ هى تطـرح مشكلات جديدة ، وتعيـد الى البحث بعض القضايا التى تتألف منها النظرية أو التى تكون مشتقة منها • وبايجاز ، فان مشكلة التطبيق ــ أى العلاقة بـين النظـرية والممارسة ــ لا يمكن تناولها تناولا ملائما من الجانب النظرى فحسب ، أو على أنها مسألة تستطيع حلها بعض الاطـارات النظرية والفلسفية العامة ، وانما يتعين النظر اليها من وجهة نظر الممارسة ذاتها ، أى أن نأخذ فى الاعتبار ذلك التغير فى النظرية الذى قد يتطلبه تطـور الحياة الاجتماعية الى صور جديدة ، ومن خـلال الاهتمام أيضـا بالبحث الامبيريقى للتطبيق ذاته ، أى الارتباط الموقفى الاجتماعى والتاريخى بين النظرية والممارسة •

ومن هذه الزاوية فان دراسة برنشتاين Bernstein للتغــــيرات التى طرأت على الرأسمالية ، وكثير من الدراسات النقدية اللاحقة ، هى تماما بحوث شرعية فى مســألة التطبيق ، انها لا تتساءل عن كيفيــة خضوع الممارسة للافكار الفلسفية ، ولكنها تبحث فى كيفية تطور النسق النظرى ، واعادة صياغته أمبيريقيا ، من أجل الكشف بطريقة أكثر دقــة عن اتجاهات الممارسة الاجتماعية وتفسيرها بصورة ملائمة • وفى ذات الوقت ، فان هذه الدراسات تطرح تساؤلا اخر ، كان فى قلب المناقشات التى دارت حول التطبيق الماركسى منذ نهاية القرن التاسع عشر ، تلك هى العلاقة بين العلم والاخلاق • اذ أن أولئك المفكرين الذين تبنـــوا نظرة وضعية واسعة ، وقبلوا التمييز بين الواقع والقيمة ، قد واجهتهم مجموعة من الصعوبات فى تفسير الحــركة الاشتراكية بوصفها ظاهرة ضرورية ومحددة ، ومن ثم فان التحول الى المجتمع الاشتراكى أمـــر لا يمكن تجنبه • وهكذا ، فان الدوافز الاخلاقية والاهداف هى غـــير ملائمة ، ويمكن النظر الى السياسة الاشتراكية (كما يمثلها كوتسـكى على سبيل المثال) على أنها تكنولوجيا اجتماعية محايدة أخلاقيا تستنـد الى علم المجتمع • ومع ذلك ، فهناك اخرون ـــ لعل أهمهم برنشتـاين وفرلندبيه(٧) ـــ ذهبوا الى أن العلم الاجتماعى الماركسى هــو بحاجة

---

(٧) فرلندبيه فيلسوف كانطى محـــدث شهير ، شرح وجهـــة نظره عن الاشتراكية الاخلاقية ، فى :

Kant und der Sozialismus (Berlin, 1900).

وأمدنا بوصف وشرح شامل للافكار الفسلفية للحركة المغيرة الكبرى فى :

kant und Marks (Tubingen : J. C. B. Mohr, 1926).

الى استكماله بنظرية أخلاقية ، اذا كانت الاشتراكية تبـــدو متفوقة أخلاقيا ، ومن ثم تستحق الكفاح بوصفها غاية • لكن هذا التجاور بين العلم الاجتماعى والنظرية الاخلاقية لا يحــل بذاته المشكلات الرئيسية اذ من الضرورى أيضا أن نتساءل كيف تستطيع نظرية حتمية عن التطور الاجتماعى أن ترتبط بامكانية الاختيار الاخلاقى (فى سياق عالم طبيعى فريد أو عالم للظواهر)، وفضلا عن ذلك فبافتراض واقعية الاختيـــار الاخلاقى ، ووجود مثاليات اخلاقية متنوعة ، كيف نفترض أن عـــدم الاتفاق الاخلاقى يجب أن يحل ، وما هـــو نوع الجدل المــلائم ، فى ايضاح أن الاشتراكية على سبيل المثال هى الافضل أخلاقيا • لقد تناول ماكس أدلر M. Adler ، كما رأينا فيما سبق ، بعض التســاؤلات عن طريق استيعاب الدوافع الاخلاقية والمعرفة العلمية فى العمـــلية السببية ، ذاهبا الى أنهم فى ذاتهم يمثلون عوامل سببية تخضع للبحث السوسيولوجى والتعليم • لكن هذه الوجهة من النظر لا تصمــد أمــام الصعوبات كلها • فهى لا توضح ما اذا كانت الغايات الاخلاقية والمعرفة الامبيريقية أو النظرية ، التى تتدخل فى تطور الحياة الاجتماعية بوصفها أسبابا ، هى أيضا نتاج للعملية السببية ، ومعنى ذلك انه يتعـــذر فهم الظواهر الامبيريقية المجردة فى ضوء صحتها أو حقيقتها أو صدقها • وعلاوة على ذلك ، فيبدو أن أدلر يفترض ، على نحو شبيه جدا بماركس ذاته ، التقدم العام للتطور الاجتماعى ، وبعض الارتباطات المستقبلية بين التطور الواقعى للحياة الاقتصادية والسياسية وبلوغ شكل متفوق أخلاقيا للمجتمع •

ومن جهة اخرى ، فان الماركسيين الهيجليين رفضوا التفـرقة بين الواقع والقيمة ، وبين العلم والاخلاق • فقد ذهبـوا الى أن الحيـاة الاجتماعية لا يمكن تناولها بوصفها موضـوعا لعلم قادر على وصـفها وتحليلها من الخارج • وفى هذا الصدد فان النـاس هم الموضـوع والظاهرة ، ونمو معرفتهم عن المجتمع هو نمو للوعى الذاتى وحـركة تحررية • ان المعرفة والفعل هنا لا ينفصلان ، وادراك الناس لمعـرفتهم يحدد لهم فى الوقت ذاته كيف يتصرفون•وعلى النمط الماركسى أن يتخذ هذا التصور الهيجـلى طابعا متميزا ، ذلك أن الموضـوع ينظر اليه باعتباره موضوعا جمعيا ، طبقة اجتماعية • وعملية تزايد الوعى الذاتى تتوج الوعى الطبقى للبروليتاريا • لكن هذه النظرية أيضا ، تعجـز عن استيعاب كل الصعوبات التى تثيرها العلاقة بين النظرية والممارسـة، فهى فى المحل الاول حتمية مثلها مثل النظرة الوضعية ، فخط التطـور التاريخى قد تحدد الان فقط فى ضوء العقـل الموضوعى أكثر من تحدده بصورة طبيعية • وفضلا عن ذلك ، فان الاسس التى اقيمت عليها هذه الضرورة لا تخضع لنفس الانتقادات التى خضعت لها الوضعية ، فهى أقيمت عن طريق نوع معين من البصيرة فى منطق التاريخ أكـثر من الملاحظة الامبيريقية ، ومن العسير أن ندرك كيف أن ضروب عدم الموافقة بين مختلف تفسيرات التاريخ يمكن مناقشتها بدقة اذا استبعدنا امكانية الاختبارات الامبيريقية ــ بصورة أو بأخرى ــ استبعادا تاما• وأخيرا يجب أن نلاحظ أن التصور الهيجلى من خلال تأكيده لفكرة ذروة نمـو المعرفة ، انما يتخذ شكلا دوجماطيقيا • انه من الممكن تأكيـد تحقيـق

المعرفة المطلقة خلال أية مرحلة تاريخية ، سواء بواسطة هيجل وفكرته عن دولة بروسيا ، أو لوكاتش فى تصوره المثالى للثورة الروسية ، ثم كيف بعد ذلك مناقضة هذه التصورات ، الا من خلال نوع من النقد الذى مارسه ماركس على النسق الهيجلى •

اننى لست معنيا هنا بأن أفحص بعمق مشكلات النظرية الماركسية الاخلاقية(٨) ، ولكننى مهتم فقط بالكشف عن علاقة هذه المشكلات بعلم الاجتماع الماركسى،وبصفة خاصة كيف يمكن أن تؤثر فى النظرة الماركسية للعلاقة بين النظرة الاجتماعية والممارسة الاجتماعية • لقد أصبح واضحا تماما ، فى المناظرات التى شهدتها نهاية القرن التاسع عشر

---

(٨) ومع ذلك فتلك قضية هامة ومهملة فى الفكر الماركسى • فكما لاحظ S. Stojanovic فى دراسته القيمة بعنوان المثاليات والواقع

Ideals and Reality (New york : Oxford University Press, 1973).

«لقد حان الوقت لصياغة أخلاق ماركسية ، فتلك الاخلاق جديرة على الاقل بأن ترتبط باسم ماركس» • (ص ١٢٧) ثم يستطرد مخلصا ، وبخاصة فى الفصل التاسع عن الاخلاق الثورية ، بعض القضايا الرئيسية التى يجب أن تتناولها نظرية الاخلاق • ولقد كان لوكاتش يقصد الى كتابة عمل منظم عن أخلاق الماركسية ولكنه لم يتمكن من انهاء اكثر من المقدمة المطولة التى تناولت مبحث الانطولوجيا • انظر :

Istvan Meszaros, Lukacs, Concept of Dialectic, London : The Merlin Press, 1972) PP. 6 : 7

وهناك بعض الآراء المستنيرة عن الاخلاق الماركسية يمكن أن نقف عليها

Leszek Kolakowski, Marxism and Beyond (London : Pall Mall Press, 1969).

وخصوصا تلك التى تناولت المسئولية والتاريخ •

أن بعض القضايا الرئيسية فى النظرية الماركسية المتعلقة بتطــور حركة الطبقة العاملة ، واندماجها فى السلوك السياسى ، وطبيعة التحــول من مجتمع رأسمالى الى مجتمع اشتراكى ، تحتاج برمتها الى نقد عــلمى وأخلاقى معا • ومرارا ، منذ عهد برنشتاين حتى وقتنا هذا ، قد يندفع البعض الى الدفاع عن المحــور الثورى للماركسية ضد مذاهب المراجعة والنزعات الاصلاحية ، لكن هذا الزعم لا معنى له ، اذا لــم يصــاحبه تحليل واقعى للقوى السياسية الفاعلة فى أشكال معينة للمجتمع الحديث (وبخاصة وجود أو غــــياب الطبقات الثورية ، سواء بشكل واقعى أو كاتجاهات تاريخية) ، وبواسطة تقــــويم الطابع التقدمى أو التحررى للحركات والنظم الثورية •

ان فكرة الثورة عند ماركس والماركسيين المتأخرين ، تمدنا بوضوح بنقطة مرجعية لمناقشة النظرية والممارسة ، أو النشاط العملى والنقدى، ومن ثم فان علم الاجتماع الماركسى يجب أن يهتم على وجه الخصوص بتحليل المفاهيم ودراسة الخبرات التاريخية للثورة • ومع ذلك ، فبرغم أهمية هذا العمل ، لا نجد سوى قلة من المفــكرين الماركسيين هى التى اهتمت بتقديم تحليل متعمق ونقدى لعمليات التغير الثورى فى العالم الحديث • فلقد نظر كورتش Korsch ــ كما رأينا ــ الى فكرة التغير الثورى فى تعارضها مع التصورات الثورية ، بوصفها احدى المبادىء الاربعة لعلم الاجتماع الماركسى ، ونجــــد وجهة نظر مماثلة فى نقــد جرامشى Gramsci لبوخارين Bukharin • ولكن هــذه المسلمة

المنهجية — التى تتناول تاريخ المجتمع الانسانى على انه يمثل سلسلة من الوثبات من شكل معين للبناء الاجتماعى الى شكل اخر — قد ظلت لفترة طويلة غير خاضعة للبحث . وعلى الرغم أنه من الواضح أنها تمثل مبدأ مثمرا يرشد البحث وله مبرراته فى التاريخ الاجتماعى الواقعى ، وبخاصة فى العصور الحديثة ، فانه مبدأ يعجز عن الفحص الدقيق لمسائل مثل العلاقة بين التغير التطورى والثورى ، والارتباط بين الثورة والعنف ، ومعنى الثورة فى السياق الديمقراطى .

ويبدو لى أن اثنين من المفكرين الماركسيين قد أسهما أكثر من غيرهم فى التحليل الدقيق للثورة وهما : روزا لوكسمبرج Rosa Luxemburg فى مقالها عام ١٩١٨ عن الثورة الروسية ، وأوتو بوير Otto Bauer فى عدد من المقالات والكتب التى نشرت فيما بين عامى ١٩١٩ — ١٩٣٦ وقد ظهرت مقتطفات منهم حديثا فى طبعة فرنسية[٩] . ولا تمثل دراسة لوكسمبرج — كما لاحظ ناتل Nattl — مناقشة للسياسة انها فحص للقضايا الرئيسية عن الثورة ... لقد طبقت نتائج محكمة

---

(٩) Rosa Luxemburg, The Russian Revolution (English edn. ed, Bertram D. Wolfe, Ann Arbor : University of Michigan Press, 1967): Yvon Bowrdet (ed.), Otto Bauer et la revolution (Paris : Etudes et Documentation Internation ales 1968).

وقد نوقشت مسألة العنف — فيما يتعلق بالنظرية الماركسية للثورة — متأخرا فى :

M. Merleau Ponty, Humanisme et terreur (Paris : Gallimard, 1947).

ومنظمة على مجموعة جديدة من الوقائع[١٠] ، ومن ثم فهى أكدت العلاقة الوثيقة بين الثورة الاشتراكية والديمقراطية ، وانتقدت البلشفية فى تفتيتها للمجلس الدستورى ، وفشلها فى اقامة الانتخابات والقضاء على حرية الصحافة وحرية التجمع والتنظيم ، والاستناد المطلق الى الحكم الارهابى ، وفى بيان الخطورة المترتبة على ديكتاتورية الطبقة وتحولها الى ديكتاتورية الحزب أو الزمرة • ان الثورة تعنى فى رأى روزا لوكسمبرج حركة شعبية من أجل التحرر ، وليست اقامة نظام متسلط يحد من الحقوق الديمقراطية من أجل وضع قادة الثورة فى مواقع القوة • ولقد كتبت تقول : لقد أخطأ لينين تماما فى الاساليب التى استخدمها مثل المرسوم والمراقبة الديكتاتورية للعمال فى المصانع ، والعقوبات القاسية ، والحكم الارهابى ، فكل هذه الاشياء لا تزيد عن كونها مسكنات • ان الطريق الوحيد للميلاد هو مدرسة الحياة العامة ذاتها ، والديمقراطية الشاملة غير المحدودة ، والرأى العام ، أما الحكم الارهابى فهو الذى يقوض الاخلاقيات •

ومع ذلك ، فان روزا لوكسمبرج لم تبحث بعمق هذه المشكلات، ربما كانت قد فعلت ذلك اذا كتبت لها الحياة حتى ترى خبرة المجتمع السوفيتى • وهكذا فهى لم تهتم بالتساؤل عما اذا كان التحول نحو الاشتراكية ممكنا كلية ، اذا لم يصل المجتمع البورجوازى فعلا الى

---

(١٠) J. P. Nettl, Rosa Luxemburg (London : Oxford University Press, 1966) II, 703 - 4.

مرحلة متقدمة من التطـــور فى مستويات الانتـــاجية والاستهلاك ، والممارســـات الديمقراطية ، وتزايد الخبرة فى ممـــارسة الحقوق الديمقراطية ، وانتشار الثقافة العـــلمية والانسانية ، تلك التى تضع أسسا ثابتة لاستمرار الحرية الانسانية. وربمـــا تجاهلت بعض هـــذه الافكار حين تبدو اصلادية على طريقة كوتسكى ، وذلك بالرغم من أن ملاحظاتها الختامية بأن الثورة الروسية تطرح فقط المشكلات ولاتحلها، ومن ثم ، فهذا يوحى بأنها تنظر الى اقامة الاشتراكية فى العالم عـــلى أساس نجاح الثورات الاشتراكية فى بعض المجتمعات الرأسماليةالاكثر تقدما . وكذلك ، فانها لم تهتم ببيان نتائج العنف الثورى المتمثـــلة فى نظـــام سياسى هيراركى متسلط ، يستمد استمراريته من الارهاب ، ويخلق نظما اجتماعية واتجاهات قد يتعذر اصلاحها على نحوديمقراطى

ولقد حلل أوتو بوير أيضا الثـــورة الروسية[11] ، التى نظـــر اليها ـــ مع ذلك ـــ من حيث محتواها الاقتصادى والاجتماعى ـــ على أنهـــا ثورة بورجوازية ديمقراطية قادها حزب الطبقة العاملة لظروف خاصـــة ظهرت فى روسيا . وقد اعتقد فى ذلك الوقت أن الحزب البـــلشيفى قد يحرر حكمه ، ويتضح الطابع البورجوازى للثورة أكثر ، ولكن حتى فى الجمهورية البورجوازية سوف تحتفظ الطبقة العاملة بكثير من مكاسبها، وتظل روسيا عاملا قويا فى تطور ديمقراطية الطبقة العاملة فى العـــالم

---

(١١) ذكر فى كتاب نشر عام ١٩٢١ ، انظر :
Bourdet, Otto Bauer, PP. 73 - 84.

ومع ذلك ، فان أهم اسهام قدمه بوير فى دراسة الثورة هو نظريته فى الثورة البطيئة Slow Revolution (١٢) فقد أقام تفرقة (كما فعل ماركس) بين الثورة السياسية والثورة الاجتماعية ، الاولى قد تكون فجائية وعنيفة ، ولكنها اذا لم تصاحب بتغيرات أساسية فى علاقات الانتاج وفى العلاقات الاجتماعية سوف لا تسفر عن أكثر من احلال أقلية حاكمة محل أخرى • وتشكل التغيرات فى العلاقات الاجتماعية ، ابتداء من مجال الانتاج ، الثورة الاجتماعية التى تنمو بطريقة أكثر بطأ ، ويمكن بناء المجتمع الاشتراكى تدريجيا ، خلال فترة طويلة من الزمن ، من خلال الاصلاحات الجذرية فى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية •

والثورة الاجتماعية فى معالجة بوير تمثل الى حد كبير عملية اعادة تنظيم تتبع الثورة السياسية ، وقهر القوة بواسطة الطبقة العاملة• ولكن يبدو لى أكثر واقعية وبصيرة أن ندرك وجود حقبة للثورة الاجتماعية ، بمعنى فترة طويلة للتغير الاجتماعى والصراع ، يحدث خلالها انهيار تدريجى لنظم المجتمع القديم ثم تكوين المجتمع الجديد، بحيث تظهر خلال هذه الحقبة ثورات سياسية متنوعة ، بعضها غيرناضج وبعضها ينجح فى تحقيق نمو أفضل فى الحرية والمساواة • ويبدو أن هذا التصور يلائم بصورة أفضل ظهور المجتمع الرأسمالى ، الذى لم

---

(١٢) In : Der Weg, zum Sozialismus (Vienna : Wiener Walksbuch - handlung, 1919); See Bourdet, Otto Bauer, PP. 87 - 130.

يكن بالقطع نتاجا لاية ثورة سياسية فريدة (على الرغم من أن كثـيرا من خصائصه قد تحققت بواسطة الثورة الفرنسية) ، ولكنه جاء نتاجـا لسلسلة طويلة من التغيرات الاقتصادية والاجتماعية ، ومجمـوعة من الصراعات السياسية كان لكل منها شكله الخاص فى كل مجتمع • ومن هذا المنظور ، نستطيع أن ننظر الى الفترة من أواخر القرن التـاسع عشر حتى يومنا هذا ، على أنها فترة الثـورة الاشتراكية ، التى أسهمت فى احداثها الثورة الروسية ، والحركات الثورية فى أوربا الغربية بعـد الحرب العالمية الثانية ، والصراعات والتناقضات السياسية العـديدة ، فتلك جميعا تمثل محاولات لتقديم نموذج جديد للمجتمـع فى سـياق التحول التدريجى للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والقيم الثقافية •

غير أن هذا التفسير يبدو مبدئيا اذا قورن بأية معالجة تاريخيـة لاصول المجتمع الرأسمالى ، اذ نحن لا نزال نعيش فى هذه التغيرات، وعلى الرغم من أننا نستطيع أن نقبض على التيارات الرئيسية للنمـو، فاننى لا أعتقد أن هناك أية طريق يمكن أن نسلكه لكى نعرف من خلاله كيف ستتعدل مجتمعات اليوم ، أو ما هى نمـاذج المجتمعات اللاحقـة عليهـا[١٣] •

---

(١٣) فعلى سبيل المثال ، تم تفسير العـديد من الثورات والحـركات السياسية فى القرن العشرين بوصفها عناصر فى انتقال وتحول ، ليـس من الرأسمالية الى الاشتراكية ، وانما من المجتمعات الزراعية الى المجتمعـات الصناعية ، وذلك كما اعتقد :

Barrington Moore, Social Origins of Dictatorship and Democracy (Boston : Beacon Press, 1966).

واذا أمكننا فقط أن ندرك علم الاجتماع الماركسى من زاوية وضعية قوية ، ونعتقد فى ذات الوقت أنه نجح فى صيـاغة بعض القـوانين السببية الهامة جدا التى تسمح لنا بالتنبؤ بمستقبل تطـور المجتمع ككل وبالتفصيل[١٤] ، أو بدلا من ذلك ، اذا أدركناه كفلسفة تاريخ تقدم لنا استبصارا محددا ودقيقا للهدف النهائى للتاريخ ، فاننا حينئـذ سوف نتمكن من معالجة امكانية التحـول نحـو الاشتراكية بوصفها ضرورة ولا يبدو لى أى من هذين الموقفين ممكنا فى ضوء المشكلات العـديدة التى تواجه صياغة النظريات السوسيولوجية واختبارها ومقارنتها، ومن ناحية أخرى ، فكـلاهما يشجع التأكيد الدوجماطيقى اكثر من البحث النقـدى •

ان علم الاجتماع الماركسى ، شأنه شأن النظريات السوسيولـوجية الاخرى ، يحتاج الى تطور تجريبى ونقدى ذاتى • وهـدفه ينبغى أن يكون تقديم وصف مثمر ، واقامة ارتباطـات دالة ، وصياغة تفسيرات سببية ، ان كان ذلك ممكنا ، (سوف تكون على أية حـال ذات عمومية محدودة) ، ويدرك فى الوقت ذاته أن النشاط الحر الواعى للناس يحقق لهم فى الواقع القدرة على تغيير قوانين الفكر الماركسى اذا أخذنا بشكل جدى التفرقة بين ما قبـل التاريخ وبين التاريخ [١٥] وهكذا فان الاطار

---

(١٤) ربما كما ادعى ماركس فى الفقرة التى أوردتها سابقـا (ص : ١٢ وما بعدها) من مقدمة الطبعة الثانية لكتاب رأس المال **Capital** .

(١٥) انظر بصفة خاصة المناقشة التى فى :

= Gago Petrovic, Marxism in the Mid - Twentieth Century,

النظرى يقف فى علاقة مختلفة مع الحياة العملية • وكما أوضحت سابقا لا يمكن النظر الى هذه العلاقة على أنها تطبيق لنظـرية صحيحة ، من أجل تحقيق غاية مرغوبة (ومتبناه) ، ولكن علاقة نامية متفاعلة بين الفكر الاجتماعى والعمل الاجتماعى ، بحيث يصنع الفـكر نفسه من خـلال البحث فى الافعال الماضية والتفكير فيها وفى نتائجها ، ويظل مفتوحـا لاستقبال التجديد الاصيل فى عملية الخلق الانسانى الذاتى •

ومع ذلك ، فلا يجب أن نفترض أن هذه التساؤلات تثـار فقط فى علم الاجتماع الماركسى • فكل علوم الاجتماع — بل وكل العـلوم الاجتماعية فى هذا الصدد — لديها وعى ذاتى ، وقصد ، وعلاقةمباشرة بالحياة الاجتماعية العملية ، وفى الحقيقة قد طـورت ، فى المجتمعات نتيجة لهذا التصور ، تنظيما أو تخطيطا واعيـا ومقصودا للوجـود الاجتماعى للانسان • وثمة مزية خاصة للفكر الماركسى هى أنه يركـزا انتباهه بوضوح ظاهر على تلك الصلة بين النظرية والممارسة ، وأحـد جوانب ضعفه الاساسية هو أنه أصبح ملتزمـا أكثر لنـوع معين من الممارسة ، وبخاصة حينما تتجسد هذه الممارسة فى أنشطة حزبسياسى منظم ، وهنا تعالج النظرية بوصفها غير قابلة للنقد ، أو بوصفها بنـاء لحقائق يجب الدفاع عنها بأية ثمن من أجل ضمان استمرار الممـارسة• وهكذا فحينما ننظر الى صدق وقيمة علم الاجتماع الماركسى فى علاقته

(Garden City, N. Y.: Doubleday Anchor, 1967) PP. 90-114 =
الذى يستنتج أن الشىء الاساسى لفكر ماركس هـو فهم أن الانسان : ليس حيوان اقتصادى ، ولكنه كائن اجتماعى عملى ، ومن ثم حر ، وكلى ، وخلاق، ومجدد لذاته •

بالنظريات السوسيولوجية الاخرى ، فاننا نحتاج الى الاهتمام ليـــس فقط بنماذجه للبناء الاجتماعى وقضاياه التفسيرية أو التأويلية ، ولكننا بحاجة أيضا الى معرفة كيف يتمكن هو ومنافسيه ، من ادراك عـــلاقته بالسلوك العملى فى الحياة الاجتماعية ، وبخاصة الســـــلوك السياسى ووضع هذه العلاقة موضع التنفيذ .

الفصل الخامس

علم الاجتماع الماركسي وعلوم الاجتماع الاخرى

علم الاجتماع الماركسي وعلوم الاجتماع الاخرى

هناك أسباب عديدة تدعونا الى الاقتراب بحذر وشك نحو محاولة تصوير الماركسية بوصفها نظرية سوسيولوجية متميزة • فأولا ، كما أوضحت مناقشاتى السابقة ، أن الماركسية ذاتها بعيدة عن أن تكون بناء فكريا متجانسا أو موحدا • فالجدل الذى ثار خلال المائة سنة الماضية قد أدى الى ظهور تفسيرات مختلفة ، بل ومدارس متنوعة للفكر الماركسى • اننا نجد انقساما رئيسيا بين أولئك الذين يتصورونها أساسا باعتبارها علما اجتماعيا عاما ، أو علم اجتماع ، لكن لاتزال ثمة فروق عديدة فى الرأى داخل هذه التصورات العامة — حول الافكار الرئيسية للنظرية الماركسية ، وحول علاقة التحليل الماركسى باختيار السلوك السياسى تحت أية ظروف خاصة •

وفى ضوء تصور الماركسية بوصفها نظرة للعالم ، يلاحظ أن مكانة علم الاجتماع تبدو غير مؤكدة تماما • وربما هناك نوع من التجاهل التام للحاجة الى وجود علم اجتماعى عام ، أو كان دوره محدودا — كما أشار جرامشى — فى اجراء مسوح اجتماعية (أى ما يمكن أن نطلق عليه بشكل أفضل الاحصاءات الاجتماعية) • ومن جهة أخرى ، فانه يمكن ادراك نظرية معينة عن المجتمع باعتبارها معتمدة كلية على النظرة الى العالم أى على الانطولوجيا ، ونظرية المعرفة ، والاخلاق ، ومن ثم فبامكاننا أن نعرف علم الاجتماع الماركسى مثلما نعرف علم الاجتماع المسيحى Christian Sociology وعلم الاجتماع الهندى Hindu Sociology،

وربما علم الاجتماع الانسانى Humanist Sociology • لكن هذه لا تبدو فكرة مثمرة ــ وهى بالتأكيد لا تحظى باهتمام الفكر الماركسى ــ لانه بالرغم من أن كل نظرية سوسيولوجية تثير تساؤلات فلسفية ، تحتاج الى الاهتمام بها من وجهة نظر فلسفة العلم وعلم الاجتماع المعرفى أيضا ، فانه ليس من الضرورى مطلقا أن يكون بناء النظريات السوسيولوجية وتطويرها معتمدا ، على الرجوع بشكل مستمر الى نظرة شاملة للعالم •

ومع ذلك ، اذا تبنينا المبدأ التصورى الاخر وعالجنا الماركسية بوصفها أساسا ، نظرية سوسيولوجية ، فان صعوبات أخرى سوف تواجهنا ، لان علم الاجتماع أيضا بعيد عن أن يكون بمثابة بناء متجانس وموحد للفكر • فمنذ البداية ، على الرغم من وجود نظريات ومشكلات عامة ، فان هناك مدارس متنوعة ، وتساؤلات عديدة لم تحسم بعد ، ونظريات غير مؤكدة ، وفى السنوات الاخيرة بلغ تعدد المذاهب ووجهات النظر مرحلة نظر اليها البعض على أنها تمثل أزمة ثقافية حادة ، واعتبرها اخرون (أكثر تشاؤما) مرحلة عدم تكامل كلى • ولكى نعرف الخصائص المتميزة لعلم الاجتماع الماركسى ، ونحكم على صدقه وتراثه فى صلته بعلوم الاجتماع الاخرى ، نحن نحتاج الى اطار أكثر شمولا واستقرارا ــ نسبيا ــ من المفاهيم التى تحدد لنا ما هى النظرية السوسيولوجية الصحيحة ، وما هو المنهج الملائم ، ونحتاج أيضا الى معايير مقبولة لاختبار القضايا والحكم عليها • ومع ذلك ، فكل هذه المسائل لا تزال محل نقاش ، وكل ما حدث هو نوع من التآلف

الغريب بين الفكر الماركسى وغير الماركسى الذى يتبنى قضية رئيسية ــ مثل الوضعية ، والفينومينولوجيا •• الخ ــ بوصفها تمثل منطق علم الاجتمـــــاع •

وأخيرا ، هناك صعوبة ثالثة ، ترتبط الى حد ما بما اقترحته الان ، فيما يتعلق بتحديد علم الاجتماع الماركسى • فمن الواضح أن بعض نماذج الماركسية قد تأثرت الى حد كبير ، بأنواع أخــــرى من الفــكر الاجتماعى وانطوت على بعض أفكار منها ، مثل الفينومينولوجيــــا ، والوجودية ، والبنيوية • ولا يزال مهما فى هذه الحالة أيضا القــول بأن الفكر السوسيولوجى قد انطوى أيضا على تصــورات ماركسية ، حتى وان كانت معــــدلة ، مثل مفــــاهيم الطبقــــة ، والصراع الطبقى ، والايديولوجيا ، وأن بعض المناقشات الهامة فى علم الاجتماع قد دارت حول أفكار ونظريات مستمدة من فكر ماركس • ونحن نوافق ، الى حدما على ان عملية تمثيل أو هضم قد حدثت بالفعل على النحو الذى وضعه كولاكوفسكى Kolakowski كلما تقدمت أساليب البحث فىالانسانيات فان مفهوم الماركسية باعتبارها مدرسة فكرية منفصلة ســوف يصبــح غير ذى موضوع وربما اختفى نهائيا «•••وما هو دائم فى أعمال ماركس سوف يتم هضمه خلال التطور الطبيعى للعلم »[1] وبالطبع هناك نتائج محتملة عديدة ، فقد يصبح علم الاجتماع ماركسيا بصورة أوضح اذا

---

(1) Leszek Kolakowski, Marxism and Beyond (London: Pall Mall Press, 1969 P. 204.

صمدت مجموعة كبيرة من القضايا الرئيسية لماركس أمام النقــد الذى أثير ضدها ، أو من جهة أخرى قد يخضع جانب كبير من أعمال ماركس لمراجعة أساسية ، وقد يهمل كلية ، نتيجة للمكتشفات الجـديدة بحيث لا تبقى سوى اثار لافكار محدودة فى بناء الفكر السوسيولوجى •

واذا أخذنا فى الاعتبار هذه الصعوبات أستطيع أن أحدد ما يبدو لى متميزا وذا قيمة فى الماركسية بوصفها علم اجتماع ، اخذا فى اعتبارى أن مناقشتى هذه انما تعتمد على تصور خاص لمجال علم الاجتمـــاع والماركسية وأهدافهما • فعلم الاجتماع هو علم امبيريقى يتضمن قضايا واقعية ذات أنواع مختلفة داخل اطار نظــرى ، ويهدف الى صيــاغة تصنيفات للظواهر الاجتماعية ، والارتباطات الوظيفية ، والعـــلاقات السببية أو شـــبه السببية[٢] ، والماركسية هى محاولة لبنـــاء ونطـــوير علم اجتماع عام فى هذا الصدد •

ولعل هناك نقطة بدء مفيدة لهذه المناقشة تتمثل فى محاولة كـــارل كورتش Karl Korsch وصف مبادىء على الاجتمـــاع الماركسى• فاذا تركنا جـــانبا مسألة التطبيق التى عرضتها فى الفصل السابق ،

---

(٢) اعنى بشبه السببية ، نموذج من العلاقة السببية يتوسط الوعى فيه، الارتباط بين السبب والنتيجة ، انظر مناقشة فى :
G H. Von Wright, Explanation and Understanding (London: Roulledge & Kegan Paul, 1971) chapter IV.
وهذا له أيضا علاقة بالمشكلات التى تتعلق بطبيعة الملاحظات التى يمكن القيام بها فى البحث السوسيولوجى •

سنجد أن ثمة نقاطا أربعة رئيسية فى معالجة كورنتش • أولا : أولــوية البناء الاقتصادى فى التحليــل الماركسى للمجتمع ذلك الذى عبــر عنه كورنتش بقوله يمكننا النظر الى الماركسية بوصفها اقتصادا سياسيا أكثر من كونها علم اجتماع ، وثانيا : التحـــديد التاريخى لكل الظواهــــر الاجتماعية داخل اطار اقتصــادى ، **ورابعــا** : الاعتراف بالتغــيرات الاجتماعية ، **وثالثــا** : وضع الدراســات الامبيريقية لبعض الظــواهر الاجتماعية الثورية تماما مثل التغيرات التطورية • لضروب التقـــدم والانهيار فى السياق التاريخى والتحول من مجتمع لاخر •

وفيما يتعلق بالنقطة الاولى ، فهى ولا شك توضح أحــد السمــات المميزة للنظرية الاجتماعية الماركسية • فليس الامر ببساطة أن جــانبا كبيرا من علم الاجتماع الحديث قد تجاهل البناء الاقتصادى ، أو منحه مكانة محدودة ، فى تحليل النسق الاجتماعى الشامل (بحيث ظهر عــلم الاجتماع كما لو انه علم يتناول الجوانب غــــير الاقتصادية للحيــاة الاجتماعية) ، ولكن المسألة هى أنه لا توجد نظرية سوسيولوجية أخرى جعلت من «أسلوب انتاج الحياة المادية» احدى مقولاتها الرئيسية•ولقد سبق أن وصفت هذا الفارق فى موضع اخر : «على العكس من النظريات السوسيولوجية الاخرى التى تتناول المجتمع كموضوع مستقل،وتسلم بوجوده فى العالم الطبيعى تسليما مطلقا ، فان نظرية ماركس اعتمــدت أساسا على فكرة العلاقة بين المجتمع وبين الطبيعة • والمفهوم الرئيسى فيها هو «العمل الانسانى» منظورا اليه من وجهــة نظر تاريخية ، أن

التفاعل المتطور بين الانسان والطبيعة هو الذى يخلق العلاقات الاجتماعية بين الناس ويحقق تطورها التقدمى »[٣] .

لكن هذه الفكرة الرئيسية قد أثارت نقدا سواء داخل نطاق الفكر الماركسى أو خارجه ، كذلك أوجدت مسألة العلاقة بين الاساس الاقتصادى والبناء الفوقى الاجتماعى والثقافى العديد من الصعوبات التفسيرية . وليس من اليسير صياغة — سواء بطريقة عامة أو على أساس حالات خاصة — القوى الحتمية المحددة للتغيرات الاقتصادية ، فى مقابل تنوع المؤثرات الاجتماعية الاخرى ، وذلك اذا كانت أولوية الاقتصاد مؤكدة لتجنب الوصول الى تأويل تكنولوجى للتاريخ .

ولقد وجه كثير من علماء الاجتماع الذين انتقدوا الماركسية،الانتباه الى أهمية العوامل غير الاجتماعية فى التطور الاجتماعى ، ولعل أشهر هذه الانتقادات تلك المعالجة التى قدمها ماكس فيبر عن دور الاخلاق البروتستانتية فى تطور الرأسمالية الغربية ، وتتبعه لعملية العقلانية فى الحياة الاجتماعية . بهدف تعديل النظرية الماركسية واستكمالها . وقد اتخذ تالكوت بارسونز T. Parsons حديثا ، اتجاها أكثر تطرفا حينما استبدل التفسير المادى للتاريخ،بتفسير اخر روحانى Spiritualist حيث كتب يقول : «اننى اعتقد ، أنه داخل النسق الاجتماعى ، تحتل العناصر المعيارية أهمية تفوق المصالح المادية للوحدات المكونة فيما

---

(٣) T. B. Bottomore (ed), Karl Marx (Englewood Cliffs N. J. : Prentice - Hall, 1973) PP : 38 - 9.

يتعلق بالتغـير الاجتماعى[٤] . ومع **ذلك ، فهذا تأكيد لاعتقاد ، بدون اقامة براهين عليه** . ومن الواضح أن كثيرا من القوى غير الاقتصـادية فى الحياة الاجتماعية ، والتى قد تكون مستقلة ــ بدرجة تقل أو تكبر ــ برغم ارتباطها احيانا بالمصالح الاتصـادية . وذلك مثل نمو العـلم ، والقومية ، والديمقراطية السياسية ، والمعتقدات الدينية والجمـاعات الدينية ، وجماعات الاقلية ، لها تأثير هام على التغير الاجتماعى وظهور الصراعات الاجتماعية .. ومثل هذه القوى غالبا ما تجاهلها المفـكرون الماركسيون ، وحينما **تؤخذ فى الاعتبار كان يتعذر** ادماجها فى اطـار التفسير الاساسى **فى ضوء تطور أسـلوب الانتـاج** والعـلاقات الطبقيـة[٥] .

وثمة نقد راديكالى اخر للاساس الذى نهضت عليه نظرية ماركس ، وهو مفهوم العمل الانسانى ؛ صاغته مدرسة فرانكفورت[٦] ولقد وجـه

---

(٤) Talcott Parsons, Societies : Evolutionary and Comparative Perspectives (Englewood Cliffs, N. J. : Prentice-Hall, 1966) P : 113.

(٥) اهتم الماركسيون النمساويون أكثر من الكتاب الماركسيين الاخـرين بتحليل الجنسية والقومية ، ذلك أنهم واجهوا هـذه المسائل فى الحيـاة السياسية داخل الامبراطورية النمساوية ــ الهنغارية . انظر بصفة خاصة :
Otto Bauer, Die Nationaliatenfrage und die Sozialdemokrative, (Vienna : Marx - Studien, 2, 1907).

(٦) انظر خاصـة :
Jurgen Habermas, Knowledge and Human Interests (London: Heinemann, 1972).
والمناقشات العامة لهذه المسألة فى : =

هذا النقد الى الفكرة التى مؤداها ، أن الماركسية تفسر التطور التاريخى للمجتمع الانسانى فقط فى ضوء العمل منظورا اليه على أنه يعنى انتاج الاشياء المادية ، وثمة موقف يتعارض مع هذه الفكرة • وهو النظرة الى الطبيعة البشرية والخلق الذاتى الانسانى على أنهما يرتكزان على خاصيتين للانسان هما : الانسان بوصفه صانعا للادوات ، ومستخدم للغة • وهكذا ، فرق هبرماس Habermas بين جانبين للنشاط البشرى هما : العمل و التفاعل ، أو السلوك الذرائعى instrumental behaviour وبالطبع فان هذه الافكار مشتقة الى حد كبير من أعمال ماركس الخاصة ، طالما أنه غالبا ما يستخدم مفهوم العمل بمعنى عام جدا (وبخاصة فى كتاباته المبكرة) ، بحيث يمكن فهمه بوصفه معادلا للنشاط الانسانى ، أو لممارسة القوى الانسانية المبدعة بعامة ، سواء فى تطور الانتاج المادى ، او فى بناء النظم الاجتماعية ، أو فى خلق الظواهر الثقافية • ولكن لا يزال الامر يستوجب الاشارة الى أن النظرية التاريخية والسوسيولوجية عند ماركس قد أعطت أهمية قصوى لتطور أشكال العمل والانتاج المادى ، والصراع الطبقى الناشىء مباشرة عن الظروف الاقتصادية • ولقد أدى النقد الذى وجهته مدرسة فرانكفورت الى هذا المفهوم الى اعادة ادخال الفلسفة المثالية الالمانية (فى تشكيل نشاط العقل المجرد) وعدم التحديد فى تفسير الاحداث الاجتماعية،

= Albrecht Wellmer, Critical Theory of Society, Chapter 2.
وقد صيغت بعض الافكار التى قام عليها هذا النقد الاخير ، أصلا فى ١٩٣٠ بوسطة ماكس هوركهيمر M. Horkheime ؛ انظر مقالاته المجمعة فى Kritische Theorie (frankfurt : S. fischer, 1968).

لانها استبعدت من موقفها المبدأ الاساسى الفريد للاكتشاف والتفسير الذى قدمه ماركس فى تفسيره الاقتصادى • ان التميز الذى يتسم به علم الاجتماع الماركسى قد أصبح غامضا فى اطار فلسفة جديدة للتاريخ تمنح تأكيدا أكبر لدور العوامل الروحية فى التطور الاجتماعى، ولكنها فى الوقت ذاته أقل قدرة على أن تحدد بوضوح القوى الفاعلة فى الصراعات الاجتماعية أو التيارات الرئيسية للتغير الاجتماعى •

والسمة المميزة الثانية لعلم الاجتماع الماركسى فيما يرى كورتش ، هى **مبدأ التخصيص التاريخى** historical Specification • وهذا المبدأ لا يفصل تماما بين الماركسية وعلوم الاجتماع الاخرى ، طالما أن كثير من هذه العلوم التطورية الاجتماعية فى القرن التاسع عشر ، وعلم الاجتماع التاريخى عند ماكس فيبر — قد حاولت أن تربط بين ظواهر اجتماعية معينة وبين الخصائص العامة لحقبة تاريخية أو نمط معين من المجتمعات • وربما كان مدتوى الاطار التاريخى الماركسى — وبخاصة تصنيفه للمجتمعات ، وفى ضوء أساليب انتاجها والمرحلة التى بلغتها فى تتابع وصفه ماركس بأنه يمثل الحقبات التقدمية فى التكوين الاقتصادى للمجتمع — هو المسئول عن الفروق • غير أن هذا الجانب أيضا من النظرية الماركسية قد خضع لنقد غير قليل ، مرة أخرى من داخل الماركسية ومن خارجها • أولا ، فهناك الصعوبة البالغة التى تواجه وضع ذلك النموذج للمجتمع الذى أطلق عليه ماركس النموذج الاسيوى

Asiatic داخــل الاطار الماركسى[٧] • وفضــلا عن ذلك ، ويبــدو أن نموذجين للمجتمعات ميزهما ماركس وهما المجتمع الاقطاعى،والرأسمالى الحديث قد خضعا أكثر من غيرهما للتحليل الماركسى ، وهمــا بالتأكيد حظيا بالدراسة ، على حين أن الدراسات الماركسية لما أطلق عليه ماركس اسم الشيوعية البدائية كانت أقل شيوعا وأدنى ثراء[٨] •

ومع ذلك كانت هنــاك أيضا انتقــادات جوهرية للمدخل التاريخى

---

(٧) انظر مقالة George Lichtheim ، ماركس والاسلوب الاســيوى للانتاج ، التى اعيد طبعها فى كتابه :

The Concept of Ideology and Other Essays (New York : Random House, 1976)

انظر أيضا المناقشة العامة لمشروع ماركس التاريخى ، بواسطـــة اريك هبسباوم Eric Hobsbawm فى مقدمته لـ :

Karl Marx, Pre-Capitalist Economic formations (London : Lawrence & Wishart, 1964).

(٨) انظر من أجل القيمة العامة للماركسية والانثروبولوجيا الاجتماعية :

Raymond Firth, The Sceptical Anthropologist ? Social Anthropology and Marxist Views on Society, Proceedings of the British Academy, Vol. LVIII (London, 1972).

وكان لماركس نفسه اهتمام قوى بالاشكال الاولى للمجتمع • وقــد كرس وقتا كبيرا فى السنوات القليلة الاخيرة لحياته للدراسات فى هذا المجــال• وقد نشرت حديثا مذكراته عن تلك الحقبة مع تعليق شامل بواسطة :

L. Krader (ed.), The Ethnological Notebooks of Karl Marx (Assen : Van Gorcum, 1972).

وتمدنا بمادة مفيدة لاعادة تقييم التصور الماركسى عن المجتمعــات الاولى• وهناك ــ كما أشار Firth ــ احياء كبير للاهتمام بهـــذه المجتمعات فى فى الوقت الحاضر ، فى الانثروبولوجيا الماركسية النقـــدية ، وبخاصة فيمـا يتعلق بالنزعة الاستعمارية والمجتمعات الريفية •

الماركسى ككل،اثارتها المدرسة البنوية الحديثة[٩] • وربما يمكن توضيح طبيعة هذه الانتقادات بايجاز من أعمال كلود ليفى ستروس - C. Levi Strauss الذى استهدف فى أعماله تغطية العناصر البنـــائية الرئيسية والعامة فى كل المجتمعات البشرية • وكما كتب فى الفصل الختامى فى كتابه : العقـــــل المتوحش The Savage Mind فى جدله مع سارتر Sartre يقول : «يحاول التحليل الاثنوجرافى أن يصل الى الاسس الكامنة خلف التباين الواقعى للمجتمعات البشرية•••» وهذا لا يشـــبه النظرة التى تبنتها المدرسة البنائية الوظيفية العامة للمجتمع ، والفارق الاســـــاسى يكمن فى مطلب ليفى ستروس من أنـــه مهتم بالمستويات الاعمق للبناء ، ورغبته فى تحقيق الارتباط بين العناصر البنائية للمجتمع وبين بناء العقل البشرى ، وربما بناء المخ ذاته (ومن هنـــا تأتى النزعة الاختزالية لهذا المنهج) • لقد كان منهجه غير تاريخى • ومن المفيد أن ندخل الى الوعى التاريخى للبحث من المعنى الحقيقى ، وأن نقيم التاريخ والانثروبولوجيا (أو علم الاجتماع) بوصفهما نظامين يكمل أحدهمـــــا الاخر ، ولكن لا يمكن ، ولا يجب أن تكون ثمة انثروبولوجيا تاريخية أو علم اجتماع تاريخى • ولـــــكن على الرغم من النموذج البنوى للبحث قد أسفر عن مادة مثيرة للاهتمام (وبخـــاصة فى اللغويات ، وبشـــكل

---

(٩) قدمت الافكار الرئيسية للبنوية وانتقدت فى :
David Robey (ed.), Structuralim : An Introduction (Oxford : University Press, 1973). andin : W. G. Runciman, Sociology in its place (Cambridge : University Press, 1970) Chapter 2, 'What Is Structuralism ?'

محدود فى الانثروبولوجيا) فان اسهامه فى علم الاجتماع لـــم يــكن اسهــاما ذى أهمية كبيرة ، فهـــو يتجنب التساؤلات الرئيسية ، وهى بالتحديد تلك المتعلقة بمحددات الاشكال المتنوعة للبناء الاجتماعى والمر التاريخى بين كل شكل واخر •

وثمة مرحلة سابقة وممهدة للبنوية شهــدتها الماركسية فى صــورة اسهامات التوسير Althusser (١٠) ومن العســير بالطبــع أن أتنــاول هنا هذا الفكر(١١) ، لكن الطريقة التى تم من خلالها تناول العــلاقة بين البناء والتاريخ قد اتضحت فى مقال موريس جودليه M. Godelier (١٢) فبعد مناقشة بسيطة تهدف الى بيان أن ماركس كان بنويا ، نجده يزعم أولوية التحليل البنوى على التحليل الماركسى : ان نشوء البنـــاء يمكن أن يدرس فقط فى ضوء توجيه من تلك المعــرفة المبدئية التى تتوافــر لدينا عن البناء ، ولكن العكس يبدو أيضا صحيح فى حالة التحـــليل الماركسى ، فبناء تكوين اجتماعى معين (مثل الرأسمالية) يمكن دراسته أيضا على أساس ما هو متوافر من معلومات سابقة على الاطار التاريخى

---

(١٠) انظر بصفة خاصة :
Louis Althusser and Etienne Balibar, Reading Capital (London New Left Books, 1970).

(١١) وقد قوضت ادعاءاته بذكاء فى مقالة :
L. Kolakowski, 'Althusser's Marx' The Socialist Register (London : The Merlin Press, 1917) PP. 111 - 28.

(١٢) Maurice Godelier, 'System, Structure and Contradiction in Capital', The Socialist Register (London : The Merlin Press, 1967) PP : 91 - 119.

بحيث تعطينا تعريفا مبدئيا لخصائصه وموقعه من هذا الاطار • ان علم الاجتماع الماركسي يتضمن تحليلا تاريخيا وبنائيا ، وحـــركة دائمة بين هذين الاتجاهين •

وينطوى الاتجاه البنيوى على محاولة أخرى لتضييق نطاق الماركسية اذ يبدو أنه يزعم أنه حينما يتعذر الكشف عن البناء الاساسى لتـــكوين اجتماعى معين ، فان علينا أن نبحث فى ظاهرة نشوء وتحـــول هـــــذا البناء باعتبارها احدى ملامح هذا البناء المجــــرد ذاته • وهكذا ، تم اختزال العملية التاريخية الى «رقصة شبح بين مقولات لا حيـــاة فيها» كما أن التفاعل بين بناء معين ، من جهة ، والانشطة الواعية لديـــــة الافراد والجماعات من جهة أخرى ــ تلك التى تحتل أهميـــة خاصـــة فى معالجة ماركس للتغير الاجتماعى ــ قد حذفت تماما من هذا الاطار التفسيرى • ونحتاج هنا الى اضافة أن التحليل البنوى لم يطور بعـــد آية تفسيرات مستنيرة للتيارات الرئيسية فى تطور المجتمعات الرأسمالية فى القرن العشرين•

والمسألة الثالثة التى أثارها كورنتش يمكن معالجتها هنا باختصار • فكما أشرت سابقا ، لقد فشل علم الاجتماع الماركسى الى حد كبـــير فى تطوير دراسات امبيريقية لظواهر اجتماعية بعينها • اذ لم يكن هنـــاك اسهامات ماركسية هامة وشاملة فى دراســـــة الجريمة والانحــــراف والبيروقراطية ، والاحزاب السياسية ، والاسرة ، ولعدد كبير اخر من مجالات البحث ، بل وحتى فى دراسة الطبقات والتدرج الاجتمـــاعى

ـ التى تشغل مكانة رئيسية فى النظرية الماركسية ـ ان هنـــاك غيـــابا ملحوظا للبحوث التاريخية والسوسيولوجية • كذلك يمكن القول أن علم الاجتماع الماركسى لم يلعب دورا تجديديا فى فتح ميادين جـــــديدة للبحث ، وتطوير نظريات جديدة ، تلك التى كان يجب أن تظهـــر خلال تطوره العلمى ، نتيجة لاصالة صياغاته الاولية • ففى السنوات الاخيرة ظهرت علامات تأثير واضحة للفـــكر الماركسى على البحث الاجتماعى ، وتطوير أفضل للنظرية الماركسية مرتكزا على البحث • ومن الامثـــــلة على ذلك ، تأثير الدراسات النقدية التى جاءت نتاجا للماركسية ، وعلى الرغم من أنها راجعت وأضافت الى التصورات الماركسية التقليدية ، الا انها أثرت فى دراسة المجتمعات النامية ، وعملية التنمية والتخلف عموما وقد بدأت هذه الدراسات بكتاب بول باران Paul Baran المعنون : الاقتصـــاد الســـياسى للنمـــو[١٣] ، واســـتمرت فى أعمـــال فـــرنك A. G. Frank [١٤] ، وأحـــدثت اصـــلاحا راديكاليا للمســـائل التى طرحتها دراسة التنمية وأحيت فى سياق جديد التحليل الماركسى للنسق الاقتصادى الاجتماعى الشامل للرأسمالية والعلاقات المركبة للاستعمار والتبعية •

---

(١٣) (New York : Monthly Review Press, 1972.).

(١٤) A. G. Frank, Capitalism and Underdevelopment in Latin American, 2 nd edn (New York : Monthly Review Press, 1969).

وباختصار شديد فى :

Henry Bernstein (ed.) Under development and Development (Harmondsworth : Penguin, 1973).

والسمة المميزة الاخيرة التى اقترحها كــروتش هى اهتمام عــلم الاجتماع الماركسى بعمليات التغير الثـــورى • وهذه السمة تفصــل بوضوح بين الماركسية والنظريات السوسيولوجية الاخرى ، سواء التى اهتمت اهتمــاما محــدودا بالتغـــير الاجتماعى وركزت على المظــاهر المستمرة واللازمنية أو الدائرية للحياة الاجتماعية،أو التى أدركت التغير على انه تدريجى ، أو عملية تطورية تنطوى على زيادة التباين الاجتماعى أو التقدم التراكمى للمعرفة••الخ(على طريقة سبنسر وبارسونز) وهناك فى الواقع فكرتان تتضمنهما النظرية الماركسية : الاولى هى الانهيارات فى الاستمرارية التاريخية ، أى الانتقال الجمعى الى صورة جـــديدة المجتمع ، والاخرى هى التغير الاجتماعى من خلال الصراع بين جماعات عدائية • وتبدو هذه العنــاصر فى هذا القرن الذى نعيشـــه وهو عصر الثورات ، واقعية الى حد كبير ، وهى تقودنا الى فهــم أصيل للنمــو الاجتماعى ، أكثر من الافكار التى انطوت عليها النظريات السوسيولوجية المنافسة • ولكن لا تزال هناك الكثير من المشكلات التى لــم تحل بعد ، بعضها تناولته فى الفصل السابق • فالعلاقة بين التغيرات التطـــورية والتغيرات الثورية تحتاج الى مزيد من البحث المتعمق،وطبيعة الحقبات الثرية يجب تحديدها بشكل أكثر دقة ، والمشكلات التى يطرحها تطــور الطبقة العاملة فى المجتمعات الرأسمالية بصورة غير ثورية ، والتى قــد تؤدى الى صياغات تطورية للنظرية الماركسية ذاتها (كما فعل برنشتاين) يجب فحصها بعناية ، ومرة أخــرى ، يمكن نقد الفــكر الماركسى بهــذا الخصوص ، فنه فشل فى اثارة دراسات امبيريقية ، أو تأملات حــول

البحث الامبيريقى ، كانت يمكن أن تحدث تطورا فى نظرية التغير الثورى يتعدى طبيعتها كمبدأ أو نموذج على أعلى مستوى للتجريد •

لقد حاولت خلال المناقشة السابقة أن أحدد الخصائص الرئيسية لعلم الاجتماع الماركسى بوصفه علما امبيريقيا ، وأن أوضح فى الوقت ذاته بعض جوانب قوته وضعفه • ويجب أن يوقر فى الاذهان ، حينما نأخذ فى الاعتبار نطاق الانتقادات التى أثيرت ، أن النظريات السوسيولوجية الاخرى قد تعرضت لانتقادات ربما كانت أكثر حدة، وأنه لا توجد أية نظرية عامة كانت لها قوة تحديد وتحليل المشكلات الرئيسية فى تطور المجتمعات ، وصياغة ارتباطات سببية وشبه سببية، واثارة جدل المسائل النظرية الرئيسية • ولكن ، ربما يمكن القول أن علم الاجتماع الماركسى — شأنه شأن بعض النظريات السوسيولوجية الاخرى — كان جريئا فى مطالبه لفهم الحياة الاجتماعية وتفسيرها،ولم يكن مهيئا لاستيعاب الحدود المفروضة على الفكر السوسيولوجى برمته ، حين يواجه بالتعقيد الهائل للتفاعل الاجتماعى والامكانات البشرية للتجديد الابتكارى • وهذه الجرأة التى كانت تميل نحو الدجماطيقية ، كانت ترتبط بوضوح بسمة أخرى للماركسية ، تلك هى التزامها بنموذج الاشتراكية كصورة مستقبلية للمجتمع • وهنا مرة أخرى ، نجد أسلوبا يشبه ما يميز علم الاجتماع بوصفه علما أخلاقيا يسعى — كما ذهب دور كايم — الى الخوض فى المسائل الفلسفية،ويجد نقطة انطلاقه فيها • والشىء المهم هو أن نحتفظ بمسافة معينة بين علم الاجتماع والفلسفة ، وان ندرك النطاق السوسيولوجى بوصفه مجالا

لتنافس النظريات حول تفسير وقائع الحياة الاجتماعية • لقد عاونت فكرة الاشتراكية بوصفها مستقبلا ممكنا ومرغوبا فى توجيه علم الاجتماع الماركسى فى اختياره للمشكلات الهامة ، وفى ادراك بحوث ذات قيمة ، وفى نقد التفسيرات الاخرى المعارضة ، لكن فكرة حتمية الاشتراكية ـ وزرعها بين وقائع الحياة الاجتماعية ـ قد مالت الى افقار الفكر الماركسى وتشويهه •



سلسلة علم الاجتمـاع المعاصر

صـــدر منهـــا :

(الكتـــاب الأول)

ميــادين عــلم الاجتمــاع :

اختيار وترجمة الدكاترة مدمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمود عودة ومحمد على محمـــد والسيد الحسينى ، دار المعـــارف ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

(الكتـــاب الثانى)

نظــرية عــلم الاجتمــاع :

تأليف نيقولا تيماشيف ، ترجمة الدكاترة محمود عودة ومحمد الجوهرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

(الكتـــاب الثالث)

أســاليب الاتصــال والتغـير الاجتمــاعى :

تأليف الدكتور مدمود عوده ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

(الكتـــاب الرابع)

تمهيــد فى عــلم الاجتمــاع :

تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعارف ، الطبعــة السادسة ، القاهرة ، ١٩٨٣ م

(الكتـــاب الخامس)

مجتمــع المصــنع :

دراسة فى علم اجتماع التنظيم : تأليف الدكتور محمد عــلى محمد ، الهيئة العامة للكتاب بالاسكندرية ، ١٩٧٢ ٠

(الكتـــاب السادس)

الصــفوة والمجتمــع :

تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجــوهرى وعليـــاء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، الطبعة الثانية . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ٠

(الكتـــاب السابع)

الطبقــات فى المجتمع الحديث :

تأليف بوتومــور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعليــاء

شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

(الكتـــاب الثـــامن)

عـــلم الاجتماع الفرنسى المعاصر :

تأليف الدكتورة عليـــاء شكرى ، الطبعة الثـــانية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ١٩٧٩ .

(الكتـــاب التاسع)

قراءات معاصرة فى علم الاجتماع :

للدكاترة عليـــاء شكرى ومحمد على محمد ومحمد الجوهرى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

(الكتـــاب العاشر)

دراسات فى التنمية الاجتماعية :

تأليف الدكاترة السيد الحسينى ومحمـــد على محمد وعليـــاء شكرى ومحمد الجوهـــرى ، الطبعة الرابعة ، دار المعـــارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

(الكتاب الحادى عشر)

مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية :

تأليف جون ركس ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى ومحمـــد

سعيد فرح ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، منشأة المعارف الاسكندرية ، ١٩٧٣ •

(الكتاب الثانى عشر)

التغير الاجتماعى :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى وآخرون ، الطبعة الثانية ، دار المعارف •

(الكتاب الثالث عشر)

دراسة علم الاجتماع :

اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القارة ، ١٩٨١ •

(الكتاب الرابع عشر)

علم الاجتماع الريفى والحضرى :

للدكتور محمد الجوهرى والدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ •

(الكتاب الخامس عشر)

مقدمة فى علم الاجتماع :

تأليف الكس انكلز ، ترجمة وتقديم الدكاترة محمد الجوهرى

وعلياء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

(الكتاب السادس عشر)

مقدمة فى علم الاجتماع الصناعى :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الثقافة ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

(الكتاب السابع عشر)

علم الفولكلور :

الجزء الأول ، تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

(الكتاب الثامن عشر)

النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم :

تأليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

(الكتاب التاسع عشر)

مصادر دراسة الفولكلور العربى :

اشراف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الثقافة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ .

(الكتــاب العشرون)

الدراســة العلمية للمعتقدات الشعبية :

اشراف الدكتور محمــد الجوهرى ، دار الثقافة ، القاهــرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ .

(الكتاب الحادى والعشرون)

عــلم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

(الكتاب الثــانى والعشرون)

عــلم الفولكلور ، الجزء الثانى ، دراسة المعتقدات الشعبية :

تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

(الكتاب الثــالث والعشرون)

بعض ملامح التغــير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى ، دراســات ميدانية لثقافة بعض المجتمعات المحلية فى المملكة العربية السعودية :

تأليف الدكتورة عليــاء شكرى ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

(الكتـــاب الرابع والعشرون)

التراث الشعبى المصرى فى المكتبة الاوربية :

تأليف الدكتورة علياء شكرى ، دار الثقافة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ ٠

(الكتاب الخامس والعشرون)

الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الاسرة :

تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ ٠

(الكتاب السادس والعشرون)

دراسات معاصرة فى علم الاجتماع :

تأليف الدكتورة عليـــاء شكرى ، دار المعارف ، القاهرة ، تحت الطبـــع ٠

(الكتاب الســـابع والعشرون)

عادات الطعام فى الوطن العربى :

تأليف الدكتورة عليـــاء شكرى ، تحت الطبع ٠

(الكتاب الثـــامن والعشرون)

الفلاحون والدولة :

تأليف الدكتور محمـــود عوده ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ •

(الكتاب التاســع والعشرون)

تاريخ عــلم الاجتمــاع :

تأليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الثالثة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٣ •

(الكتــاب الثــــلاثون)

عــلم الاجتماع والمنهج العلمى :

تأليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الثالثة ، دار المعرفة الجامعية الاســـكندرية ، ١٩٨٣ •

(الكتاب الحادى والثــلاثون)

أصـــول علم الاجتماع السياسى :

تأليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الثالثة ، دار المعرفة الجامعية ، الاســـكندرية ، ١٩٨٣ •

(الكتاب الثـــانى والثلاثون)

جماعات الغجر مع اشارة لغجر مصر والبلاد العربية :

تأليف الدكتور نبيل صبحى حنا ، الطبعة الاولى ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨٠ •

(الكتاب الثـالث والثلاثون)

الانثروبولوجيـــا :

أسس نظرية وتطبيقات عملية : تأليف الدكتور محمد الجوهرى، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ •

(الكتــاب الرابع والثلاثون)

عــلم الاجتماع الســياسى :

المفاهيم والقضايا : تأليف الدكتور الســيد الحسينى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨١ •

(الكتاب الخامس والثلاثون)

عــلم الاجتماع العسكرى : التحليــل السوسيولوجى لنســق السلطة العســـكرية :

تأليف الدكتور أحمــد خضر ، الطبعة الاولى ، دار المعــارف ، القـــاهرة ، ١٩٨٠ •

(الكتاب السادس والثلاثون)

الفـــكر الاجتمـــاعى :

نظـــرة تاريخية عالمية ، تأليف هاينز موس ، ترجمة الدكتـــور السيد الحسينى والدكتورة جهينة سلطان العيسى ، الطبعـــة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ •

(الكتاب الســابع والثلاثون)

التنميــة والتخلف :

دراســة تاريخية بنائية ، تأليف الدكتور السيد الحســينى ، الطبعة الثانية ،دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ •

(الكتــاب الثــامن والثلاثون)

المدينــــــــة :

دراسة فى عــلم الاجتماع الحضرى ، تأليف الدكتور الســيد الحسينى ، الطبعة الثانية ،دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ •

(الكتــاب التاسع والثلاثون)

اليظـرية الاجتماعية المعاصرة :

دراسة لعلاقة الانسان بالمجتمع ، تأليف الدكتور على ليــلة ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٨١ •

(الكتــاب الأربعــون)

عــلم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية :

تأليف الدكتور أحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعــارف ، القــاهرة ، ١٩٨١ •

(الكتاب الحادى والاربعون)

البناء السياسى فى الريف المصرى : تحليل لجماعات الصفوة القديمة والجديدة :

تأليف الدكتور أحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف . القاهرة ، ١٩٨١ .

(الكتاب الثانى والاربعون)

علم الاجتماع الامريكى :

دراسة لاعمال تالكوت بارسونز ، تأليف جى روشيه ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى والدكتور أحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٨١ .

(الكتاب الثالث والاربعون)

البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا : المفاهيم والقضايا:

تأليف الدكتور على ليلة ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

(الكتاب الرابع والاربعون)

علم الاجتماع والنقد الاجتماعى :

تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى والسيد الحسينى وعلى ليلة وأحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

(الكتاب الخامس والاربعون)

الاقتصـــاد والمجتمع فى العالم الثالث :

تحرير الن مونتجوى ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعـــلى ليلة وأحمد زايد ، دار المعارف ، تحت الطبع .

(الكتاب السادس والاربعون)

وقت الفراغ فى المجتمع الحديث :

تأليف الدكتور محمـــد على محمد ، دار المعـــرفة الجامعية ، الاســـــكندرية ، ١٩٨١ .

(الكتاب الســـابع والاربعون)

عـــلم الاجتمـــاع :

تأليف جونسون ، ترجمة وتعليق الدكاترة علياء شكرى ومحمد الجوهرى وعلى ليلة وأحمد زايد وحسن الخولى ، تحت الطبع .

(الكتاب الثـــامن والاربعون)

الريف والمدينة فى مجتمعات العالم الثالث :

مدخل اجتماعى ثقافى ، تأليف الدكتور حسن الخولى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، ١٩٨٢ .

(الكتاب التاسـع والاربعون)

المـرأة المصرية بين البيت والعمل :

تأليف الدكتـور محمد سـلامة آدم ، الطبعـة الاولى ، دار المعارف ، ١٩٨٢ ٠

(الكتاب الخمسـون)

النظرية الاجتماعية فى الفكر الاسلامى :

تأليف الدكتورة زينب رضوان ، دار المعارف ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٢ ٠

(الكتاب الحادى والخمسون)

نحـو نظرية اجتماعية نقدية :

تأليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٢ ٠

(الكتاب الثـانى والخمسون)

التغـير الاجتماعى ٠ اختيار وترجمة :

الدكاترة محمـد الجوهرى وعليـاء شكرى وعلى ليـلة ، دار المعارف ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٢ ٠

(الكتاب الثـالث والخمسون)

النظـرية الاجتماعية ودراسة الاسرة :

تأليف الدكتورة سامية الخشاب ، الطبعة الاولى ، دار المعارف، القـاهرة ، ١٩٨٢ ٠

(الكتاب الرابع والخمسـون)

البنـاء الاجتماعى والثقافة فى مجتمع الغجر :

دراسة أنثربولوجية لتأثير البنـاء والثقافة والشخصية على التكامل الاجتماعى تأليف الدكتور نبيل صبحى حنـا ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القـاهرة ، ١٩٨٣ .

(الكتاب الخامس والخمسون)

المجنمع والثقافة والشخصية : مدخل الى علم الاجتماع :

تأليف الدكاترة محمد على محمد ، وغريب سيد أحمد وعـلى عبد الرازق جلبى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسـكندرية ، ١٩٨٣ .

(الكتاب السادس والخمسون)

التصـنيع فى الدول النامية :

تأليف آلان مونتجوى ترجمة وتقديم الدكتور السيد الحسينى الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القـاهرة ، ١٩٨٢ .

(الكتاب السابع والخمسون)

عـلم اجتماع الادارة :

تأليف الدكتور عبد الهادى الجوهرى ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعـة الاولى ، ١٩٨٣ .

(الكتاب الثـــامن والخمسون)

عـــلم الاجتمـــاع الطبى :

اختيار وترجمة الدكاترة محمد على محمد ، ســـناء الخولى ، على عبد الرازق جلبى ، ســـامية جابر ، الطبعة الاولى ، دار المعرفة الجامعية ، الاســـكندرية ، ١٩٨٣ .

(الكتاب التاسع والخمسون)

نقـــد علم الاجتمـــاع الماركسى :

تأليف توم بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد على محمد ، عـــلى عبـــد الرازق جلبى ، الطبعة الاولى ، دار المعرفة الجامعيـــة ، ١٩٨٣ .

الفنيـــة للطبـــاعة والنشر ـ ٤٨ ش جـــودة رأس التين ـ الاسكندرية

